الكتـاب السادس

الفصل الأول

1- وراء مصبّ سيلاريدس تـأتي لوكانيـا ومعبـد هـيرا الأرغيفيـة الـذي شـيده ياسـون، وبعـد 50 مرحلـة تـأتي بوسيدونيا. وإذا مـا أبحرنـا مـن هنـا مـن الخليج، فسـوف نقترب من جزيرة ليكوسيا التي لا تفصلها عن البر سوى مسافة قصيرة جدّاً. وقد دعيت هذه الجزيرة باسم إحدى السيرينيس، وهي السيرينيس التي ألقت بنفسها على شـواطئها بعد أن اندفعت السيرينيس الأُخر (كما تقول الأسـطورة) في زبـد البحـر. وأمـام الجزيـرة رأس بحرية مقابل سيرينوسا، وتشكّل هذه الرأس خليج بوسيدونيوس. وبعـد أن نتجـاوز هذه الرأس نقترب مباشرة من خليج آخـر، حيـث تقـع مدينـة أسّسـها الثوكيـون ودعوهـا هيبيلا، لكنّ آخرين دعوهـا إيليا، علـى اسـم ينبـوع مـا؛ أمّـا معاصرونا فيـدعونها إيلييـا. وهذه المدينة هي مسقط رأس الفيثاغورسيين، بارمينيدس، وزينون. وقد نالت إيلييا ليس بفضلهما فقـط، إنّمـا بحسـب رأيـي، قبلـهما أيضـاً، نظـام دولـة جيـداً. ولـذلك صـمد سـكّانها في وجـه اللوكـانيين والبوسـيدونيين، بـل وانتصـروا علـيهم، مـع أن بلادهـم كانت أصغر مساحة من بلاد خصومهم، وأعدادهم أقل من أعداد هؤلاء. وعلى أي فقد أرغمهم شح أراضيهم على أن يتّجهوا إلى الأعمال المرتبطة بالبحر، ويبنوا منشآت لتمليح الأسماك وما شابه مـن المؤسّسـات. ويـروي أنطـوخ أنـه بعـد أن اسـتولى هاربـاغ قائـد قـوات قـورش، علـى ثوكيـا، صـعد كـلّ مـن اسـتطاع مـن الثـوكيين ومعـه عائلتـه، إلى متـون السفن، وقد قاد جمعهم كريونتيادس، فـأبحروا أولاً إلى كـيرن وماسـاليا، لكـنّهم لمـا باؤوا بالفشل هنـاك، أسّسـوا إيلييـا[1]. ويشـتق بعضـهم اسـم المدينـة مـن اسـم نهـر إيلييـت. وتقع المدينة على بعد ما يقارب 200 مرحلة عن بوسيدونيا. وتلي إيلييـا رأس بـالينور. وتقـع أمام منطقة إيلييا جزيرتا إينوتريدس، وفي كلّ منهمـا محطـة للسـفن. وتـأتي بعـد بـالينور رأس بيكسـونت، ومرسـى، ونهـر، وتـدعى هـذه الثلاثـة باسـم واحـد. وفي بيكسـونت

أسّس ميكيث حاكم ميسينا التي في صقليا، مستوطنة، لكنّ المستوطنين كلّهم، ما عدا قلّة، عادوا من حيث أتوا. ويلي بيكسونت خليج آخر، ونهر، ومدينة لاوس. وتقع هذه المدينة، وهي آخر المدن اللوكانية، أعلى من البحر بقليل، وتعدّ مستعمرة للسيبارتيين؛ والمسافة منها إلى إيلا 400 مرحلة. وتمتدّ الطريق البحرية كلّها على طول شواطئ ليفكانيا 650 مرحلة. وغير بعيد عن لاوس يقع معبد البطل دراكونتس (أحد مرافقي أوديسيوس)، الذي تلقى الإيتاليوتيون بخصوصه النبوءة الآتية:

في زمن ما، سوف يهلك كثير من الناس حول دراكونتس اللايسي[2].

وقد حصل فعلاً أن الشعوب[3] التي خدعتها النبوءة، أي الإغريق الإيطاليين، وشنت حملة على لاوس، منيت بالهزيمة أمام اللوكانيين.

2- وهكذا فإن هذه هي المناطق التابعة للوكانيين على الساحل التيريني. أمّا فيما يخصّ البحر الآخر[4]، فإن اللوكانيين عجزوا فيما مضى عن بلوغه، لأنّ الإغريق كانوا يسيطرون عليه، إذ كانوا يملكون الخليج التارانتي. وقبل مجيء الإغريق إلى إيطاليا، لم يكن اللوكانيون قد وطئوها بعد: كان الهاونيون والإينوتريون يستوطنون هذه الأماكن. ولكن عندما زادت قوة السامنيتيين بشكل ملحوظ، طردوا الإينوتريين والهاونيين وأسكنوا اللوكانيين في هذا الجزء من البلاد، في الوقت الذي كان يشغل فيه الإغريق الساحلين معاً حتّى الخليج مباشرة. وقد تحارب الإغريق والبربر طويلاً. كما تسبب طغاة صقليا ومن بعدهم القرطاجيون الذين حاربوا الرومان على صقليا ثمّ على إيطاليا نفسها، تسببوا بأذى كبير لأقوام هذه المناطق، خاصة للإغريق. والحقيقة أن الإغريق فيما بعد، ومنذ زمن حرب طروادا، انتزعوا من السكّان المحلّيين جزءاً كبيراً من المناطق الداخلية، وقويت شوكتهم هنا إلى درجة أنهم دعوا هذا الجزء من إيطاليا وصقليا، باليونان الكبرى. ولكنّ أجزاء البلاد كلّها الآن، ما عدا تارانت، وريغوس، ونابولي، اكتسبت مظهراً بربرياً؛ فبعض المناطق شغلها اللوكانيون والبريتيون، وبعضها الآخر شغله الكامبانيون؛ لكنّ هؤلاء لم يشغلوا المكان إلاّ بالاسم، أمّا في واقع الأمر فإن الرومان هم الذين شغلوه، لأنّ الكامبانيين أنفسهم صاروا إلى رومان. بيد أنه لزام على من يشتغل بوصف الأرض، ألا يتحدّث عمّا هو راهن فقط، بل عن أحداث الماضي أحياناً، خاصة إذا كانت هذه الأحداث قد اشتهرت. وفيما يخصّ اللوكانيين، كنت قد تحدّثت عن أولئك الذين يتاخمون البحر التيريني، أمّا الذين يشغلون المناطق الداخلية، فإنهم يعيشون على الخليج التارانتي. وهؤلاء الأخيرون، هم على وجه العموم كالبريتيين والسامنيتيين أنفسهم، أسلاف هذه

القبائل، مبعثرين إلى درجة يصعب معها تحديد مستوطناتهم. ويكمن السبب في أنه ليس لدى كلّ قبيلة على حدة، جامعة أكثر عمومية؛ فاندثرت السمات التفريقية في اللغة، والتسليح، وزي الملابس، وما شابه من الأشياء. وعلى أي حال فإن مستوطناتهم (إذا ما تعاملنا معها كلاً على حدة، جزءاً جزءاً)، هزيلة تماماً ولا أهمية لها.

3- إنني لا أعرض سوى المعلومات العامّة التي تيسر لي جمعها عن القبائل التي تقطن داخل البلاد، من غير أن أفرق بينها، وخاصة عن اللوكانيين والسامنيتيين المجاورين لهم. إن عاصمة الهاونيين، هي مدينة بيتيليا التي لا تزال تتوفّر حتّى يومنا هذا على عدد كبير من السكّان. وكان فيلوكتيتس هو الذي أسّسها بعد فراره من ميليبيا في زمن الاضطرابات. وكانت الطبيعة نفسها قد منحت هذه المدينة تحصينات قوية؛ كما أحاطها السامنيتيون يوماً بأسوار ضدّ فوري. وأسّس فيلوكتيتس في تلك الأرجاء مدينة كريميسا القديمة أيضاً. ففي مؤلّفه «عن السفن» يأتي أبوللودوروس على ذكر فيلوكتيتس فيقول: إنه بحسب روايات بعض المؤلّفين أن فيلوكتيتس إذ وصل إلى منطقة الكروتونيين، عمّر رأس كريميسا ومدينة هونا فوقها؛ ومن هذه المدينة تلقّى السكّان اسم الهونيين؛ وقد أرسل فيلوكتيتس بعض مرافقيه وعلى رأسهم إيجيستوس الطروادي، إلى منطقة إيريكس في صقليا، حيث حصّنوا مدينة إيجيستا. وتقع في داخل البلاد: غرومينت، وفيرتينا، وكالاسارنا وسواها من المستوطنات الصغيرة وصولاً إلى مدينة فينوسيا. وأنا أرى أن هذه المدينة والمدينة التي تليها مباشرة على الطريق إلى كامبانيا، هما من المدن السامنيتية. وتقع إلى الأعلى من فوري منطقة تسمى منطقة تافريانا. واللوكانيون هم سامنيتيون من حيث المنشأ؛ وبعد أن هزموا البوسيدونيين وحلفاءهم، امتلكوا مدينتهم. وعلى امتداد الزمن الباقي كلّه، اعتمد هؤلاء نظام الإدارة الديمقراطي، لكنّهم وقت الحرب كانوا ينتخبون ملكاً من بين الشخصيات التي كانت قد شغلت مناصب عليا في الدولة. بيد أنهم باتوا الآن رومان.

4- يشغل البريتيون الساحل الذي يلي ليفكانيا حتّى مضيق صقليا مباشرة، على امتداد 1350 مرحلة. ووفق ما يخبر به أنطوخ في مؤلّفه «عن إيطاليا»، أن هذه المنطقة كانت تدعى يوماً ما إيطاليا (وهو يكتب عنها)، مع أنها كانت تحمل في الأزمنة الماضية اسم إينوتريا. وقد حدّد لها على البحر التيريني الحدود عينها التي اعتمدتها أنا لمنطقة البريتيين، أي نهر لاوس، وعلى البحر الصقلي، ميتابونتي. أمّا فيما يخصّ منطقة تارانت التي تتاخم ميتابونتي، فإن أنطوخ يرى أنها خارج إيطاليا، ويدعو التارانتيين باليابيغيين. ويقول أيضاً، إن اسم الإينوتريين واسم الإيطاليين لم تحملهما من قبل سوى

القبائل التي كانت تعيش على هذا الجانب من البرزخ، في المنطقة التي تتّجه نحو مضيق صقليا. والبرزخ نفسه (عرضه 160 مرحلة) واقع بين خليجين: هيبونيات (الذي يدعوه أنطوخ نابيتين)، وسكيليت. ويبلغ طول الطريق البحرية الملتفة حول المنطقة الواقعة بين البرزخ والمضيق، 2000 مرحلة. وبحسب أنطوخ أن اسم «إيطاليا» واسم الإينوتريين قد انتشرا بعد ذلك حتّى منطقة ميتابونتي وسيريس. ففي هذه الأماكن سكن الهونيون، كما يقول، وهؤلاء قبيلة إينوترية منظمة تنظيماً جيداً، وهم من دعا البلاد باسم هونا. وعلى هذا النحو فإن هذا الكتاب عرض رؤية بعيدة عن الدّقّة، فاتبع السنن القديمة ولم يفرق بين اللوكانيين والبريتيين. ونقول في السياق، إن لوكانيا تقع بين الساحل التيريني والساحل الصّقلي؛ ويمتدّ الأول من نهر سيلاريدس حتّى لاوس، ويمتدّ الثاني من ميتابونتي حتّى فوري. وفي القارّة تمتدّ لوكانيا من منطقة سامنيتيا حتّى البرزخ الواقع بين فوري وكيريلا (غير بعيد عن لاوس). ويبلغ عرض هذا البرزخ 300 مرحلة. وإلى الأعلى من اللوكانيين تقع منطقة البريتيين الذين يعيشون على شبه الجزيرة. وثمّة في هذه الشبه الجزيرة شبه جزيرة أخرى ببرزخ بين سكيليسيا وخليج هيبونيات. وقد أعطى اللوكانيون هذه القبيلة اسمها، لأنهم يدعون المتمردين كلّهم بريتيين. وكان البريتيون من قبل مجرّد رعاة عند اللوكانيين، ثمّ أخذوا يتصرّفون بعد ذلك بسبب ضعف [أسيادهم]، كأناس أحرار. ويقال إنهم أعلنوا انتفاضتهم في الوقت الذي قاد فيه ديون حملة ضدّ ديونيسيوس[5]، مثيراً جميعهم ضدّ جميعهم. لقد كانت هذه هي الملامح العامّة لوصفي اللوكانيين والبريتيين.

5- إن أوّل مدن بريتيا بعد لاوس، هي تيميسا (يدعوها معاصرونا تيمبسا). وقد أسّسها الأفسونيون، لكنّ الإيثوليين بقيادة ثوانتس جاؤوا فيما بعد وسكنوها. ثمّ طرد البريتيون الإيثوليين، وهزم هنيبعل ثمّ الرومان البريتيين. وغير بعيد عن تيميسا يقع معبد يغطيه دغل كثيف من شجر الزيتون البري، وهو معبد البطل بوليتوس أحد مرافقي أوديسيوس، الذي قتله البرابرة غدراً، الأمر الذي أثار حنق البطل، وبناء على أمر الكاهن المتنبئ المحلّي بات سكّان الجوار يجمعون له إتاوة[6]. ومن هنا جاء المثل عن التعامل الصارم مع الناس ليقول: إن «البطل التيميسي لهم بالمرصاد». ولكن عندما استولى لوكريو إيبيزيفيروس على هذه المدينة، فإن يفيم، كما تقول الأسطورة، وهو بطل في العراك، نازل بوليتوس وهزمه، وأرغمه على أن يعفي السكّان المحلّيين من الإتاوة. ويقال إن هوميروس يأتي على ذكر هذه التيميسا تحديداً، وليس تاميسا قبرص(وحتى نطق الاسمين مختلف):

إلى تيميسا أمضي من أجل النحاس؛

(الأوذيسا I، 184)

وفعلاً يرونك هناك على مقربة من المدينة مناجم نحاس، وإن كانت الآن مهجورة. وغير بعيد عن تيميسا تقع تيرينا التي دمّرها هنيبعل، لأنه عجز عن حمايتها في الوقت الذي وجد لنفسه ملجأ في بريتيا. ثمّ تأتي بعدها كوسينتيا، مدينة البريتيين الرئيسة. وثمّة إلى الأعلى منها قليلاً، قلعة قوية، هي قلعة باندوسيا التي هلك عندها الإسكندر المولوسي[7]. وكان كاهن دودونا[8] المتنبّئ قد خدعه أيضاً، إذ أمره بأن يحذر أخيرونت وباندوسيا. فقد أرشدوا الملك إلى أماكن تحمل اسمي هذين الموقعين نفسيهما في تيسبروتيا، بينما أنهى الرجل حياته هنا في بريتيا. فعند القلعة ترتفع ثلاث قمم، ويجري قربها نهر أخيرونت. كما خدع الإسكندر بواحدة أخرى من نبوءات الكاهن:

في زمن ماسوف تهلكين ياباندوسيا يا ذات الرؤوس الثلاث، كثيراً من البشر.

فقد ظنّ الإسكندر أن المتنبّئ يشير إلى هلاك الأعداء، لا إلى هلاك أبناء جلدته. ويقولون، إن باندوسيا كانت في زمن مضى مقر الملوك الإينتوريين. وبعد كوسينتيا تأتي هيبوني التي أسّسها اللوكريون. ثمّ استولى عليها البريتيون فيما بعد، لكنّ الرومان انتزعوها منهم وبدلوا اسمها إلى فيبو فالانسيا. وبما أن ضواحي هيبوني فيها مروج بديعة من الزهور، فقد ظنّوا أن كورا جاءت من صقليا إلى هنا لتجمع الزهور وتضفر الأكاليل، لأنه كان من المعيب أن يحمل أحد في الأعياد أكاليل مشرية. وفي المدينة محطة سفن كان قد بناها في زمن ما طاغية السيكيليتيين[9] أغاثوكليس، بعد أن استولى على المدينة. وإذا أبحرت نحو ميناء هرقل فإن منعطف أطراف إيطاليا يبدأ هنا غربي الخليج. ولدى هذا الإبحار على الخط الساحلي، نبحر على مقربة من ميدما، مدينة اللوكريين، سمية ينبوع كبير يقع هنا؛ وغير بعيد من هنا تقع محطة سفن تدعى إيمبوري. ويجري على مقربة هنا نهر ميتاور وعليه مرسى يحمل الاسم نفسه. وتقع أمام هذا الساحل، الجزر الليبارية، على مسافة 200 مرحلة من الخليج. ويرى بعضهم أن هذه الجزر هي جزر إيولس الذي يذكره هوميروس في «الأوذيسا»[10]. وعدد هذه الجزر 7 جزر تقع كلّها في مجال الرؤية، إن من صقليا، أو من البر عند ميدما. لكنّني لن أتحدّث عنها الآن، بل عندما سأصف صقليا. ويأتي بعد نهر ميتاور، ميتاور آخر[11]. وبعد هذا النهر مباشرة تأتي سكيليوس، وهي صخرة شاهقة على شكل شبه جزيرة لها برزخ منخفض يمكن الوصول إليه من الجانبين. ولكن أناكسيلايوس، طاغية ريغوس حصّن البرزخ ضدّ التيرينيين، فبنى محطة سفن أعاق بها دخول القراصنة

عبر المضيق. فعلى بعد 250 مرحلة عن ميدما يقع كينيوس، وهو آخر بروز يشكّل مع رأس بيلوريادا التي تبرز من جهة صقليا، معبراً ضيّقاً للمضيق. وهذه الرأس هي واحدة من ثلاث رؤوس تجعل من صقليا مثلثاً يتّجه نحو مشرق الشمس صيفاً، بينما يتّجه كينيوس نحو الغرب، وعليه فإنهما يتخذان وجهتين متعاكستين. ومن كينيوس إلى معبد بوسيدون أو عمود الريغوسيين، يمتدّ معبر ضيّق طوله حوالي 6 مراحل، لكنّ طول أقصر ممرّ، أكثر من هذا بقليل. ومن العمود إلى ريغوس 100 مرحلة؛ ويتّسع المضيق هنا عندما تتّجه إلى الأمام شرقاً نحو البحر الخارجي الذي يدعى البحر الصقلي.

6- أمّا ريغوس فقد أسّسها الخلكيديون. ويروى أن شح المحاصيل دفع هؤلاء إلى أن يكرّسوا كلّ عاشر منهم لأبوللون[12]، ثمّ انتقلوا إلى هنا قادمين من دلفي ومعهم آخرون من أبناء جلدتهم. وحسب أنطوخ أن الزانكليين دعوا الخلكيديين وعينوا أنتيمنيسيس مؤسّساً للمستعمرة. وقد شارك في هذه المستوطنة أيضاً، منفيون ميسينيون من البيلوبونيز. وكان قد طردهم في أثناء العصيان، أولئك الذين لم يشاؤوا أن يمنحوا المتعة للاكيديمونيين بسبب اغتصاب الفتيات[13] في ليمنا، مع أنهم هم أنفسهم لم يكتفوا بممارسة العنف مع الفتيات، بل قتلوا حراسهن أيضاً. وإذ اعتزل المنفيون في ماكيستوس، أرسلوا مبعوثين إلى كاهن الإله المتنبّئ يشكون الإله أبوللون والإلهة أرطميس: إذا كان سبب ما حل بهم هو دفاعهم عن الإلهة، فإن بهم رغبة لأن يعرفوا كيف يمكنهم أن ينجوا بأرواحهم. فأمرهم أبوللون بأن يتوجهوا مع الخلكيديين إلى ريغوس ويقدّموا الشكر لأخته؛ فهم لم يهلكوا، بل نجوا، ولن يهلكوا مع بلادهم التي سوف يستولي الإسبرطيون عليها قريباً. فأذعن الميسينيون. ولهذا كان حكّام ريغوس حتّى أناكسيلاوس، ينتخبون دائماً من سلالة الميسينيين. وبحسب قول أنطوخ إنّ السيكيليين والمورجيتيين قد سكنوا هذه المنطقة كلّها في الأزمنة القديمة، لكنّهم أرغموا فيما بعد تحت ضغط الإينوتريين، على الانتقال إلى صقليا. ويزعم بعضهم أن مورغانتي أخذت اسمها من هؤلاء المورجيتيين. لقد بلغت مدينة الريغوسيين درجة عالية من القوة، وأخضعت كثيراً من المدن المجاورة لسيطرتها. وكان هؤلاء دوماً الحصن الأمامي في مواجهة الجزيرة: قديماً، وفي زمن غير بعيد أيضاً، في زمننا هذا عندما أعلن سيكست بومبيوس انتفاضته في صقليا. وعلى حدّ قول إيسخيليوس أن المدينة دعيت «ريغوس» بسبب البلية التي حلت بهذه المنطقة. فإيسخيليوس وغيره من الكتاب يؤكّدون على أن صقليا «انتزعت» يوماً ما من البرّ إثر هزّة أرضية:

لذلك تدعى الآن ريغوس

(على أساس الظاهرات التي تحدث في ضواحي إيتنا ومناطق صقليا الأخرى، وفي ليبارا والجزر القريبة منها، كما في بيفيكوسا وعلى كلّ الساحل المجاور للقارّة، يستنتجون بدرجة عالية من الأرجحية، أن هذا «الانتزاع» قد حصل فعلاً. أمّا الآن فإن حدوث الهزّات الأرضية حول المضيق بات نادراً كما يقولون، لأنّ هناك فتحات تخرج عبرها الحمم النارية، والسائل البركاني، والتيارات المائية إلى السطح. ولكن عندما كانت المخارج إلى السطح مغلقة كلّها، كانت النيران الجوفية المستعرة تتسبب بالتآزر مع الرياح، بحدوث الهزّات الأرضية العنيفة؛ فالأماكن التي بدت كأن عتلات رفعتها، تراجعت أخيراً بفعل قوة ضغط الرياح، وأظهرت شقوقاً استقبلت عبرها البحر من جهتين: هنا في المضيق، وبين الجزر الأخرى الموجودة في هذه المنطقة. وواقع الأمر فعلاً، هو أن بروخيتا، وبيفيكوسا، ومثلهما كابري، وليكوسيا، وسيرينا، وإينوتريدس، كلّها كسرات من البرّ. أمّا الجزر الأخرى، فهي على الضدّ من هذا، ارتفعت من أعماق اللجة البحرية، وهو ما يحدث حتّى يومنا هذا في كثير من الأماكن. فالأرجح، والأكثر معقولية، هو أن تكون الجزر الواقعة في عرض البحر قد صعدت من أعماقه، والجزر الواقعة أمام الرؤوس وتفصلها عن البر مضائق، قطعاً منتزعة من البرّ). والآن، هل على هذا الأساس نالت ريغوس تسميتها، أم أنها نالتها بفضل مجدها (لأنه كان يمكن للسامنيتيين أن يدعوها باللاتينية «ملكية»[15]، لأنّ أسلافهم الأوائل شاركوا الرومان إدارة شؤون البلاد، واستخدموا اللاتينية في غالب الأحيان)، ولا يزال هذا السؤال - أيّ من التفسيرين هو التفسير الصحيح - يحتاج إلى مزيد من الدراسة والتدقيق. ولكن مهما كان الأمر فإن هذه المدينة كانت مدينة شهيرة أسّست كثيراً من المدن - المستعمرات، وكانت مسقط رأس كثير من رجال لدولة والعلماء. وقد دمّرها ديونيسيوس[16] متهماً إياها بما يلي: عندما طلب من المدينة فتاة زوجة له، عرض عليه سكّانها ابنة الجلاد. ولكنّ ابن ديونيسيوس أعاد بناء جزء من المدينة ودعاها فيبيوس[17]. وفي زمن بيروس أبادت فرق الحماية في كامبانيا أكثر السكّان بسبب انتهاكهم الاتفاق، وقبيل الحرب المارسية بقليل، ضربت المستوطنة هزّة أرضية دمّرت قسماً مهمّاً منها. ولما طرد أغسطس قيصر، بومبيوس من صقليا، لاحظ نقصاً في سكّان المدينة، فأسكن فيها عدداً كبيراً من المستعمرين انتقاهم من بين أفراد طاقم أسطوله. وفي المدينة الآن كثافة سكّانية عالية.

7- وإذا أبحرت من ريغوس شرقاً، فعلى بعد 50 مرحلة منها تقع رأس ليكوبيترا[18] (دعيت بهذا الاسم بسبب لونها)، الذي يقال إن سلسلة جبال الأبينين تنتهي عندها. ومن هنا ندلف إلى هرقليا التي تعدّ آخر رأس بحرية، وهي تتّجه نحو

الجنوب. وإذ يحيدون عنها، يبحرون مع الريح الجنوبية الشرقية مباشرة إلى رأس يابيغيا. ثمّ ينحرف خطّ الإبحار أكثر فأكثر باتجاه شمال غرب، نحو الخليج الإيوني. وتأتي بعد هيراقليا رأس لوكريدس (التي تدعى زفيروس) وميناؤها المفتوح للرياح الغربية، ومن هنا جاءت تسميتها. تلي ذلك مدينة اللوكريين الأيبزيفيريين[19]، وهي مستعمرة اللوكريين الذين يعيشون في الخليج الكريسي. وقد بنى يوانث هذه المستعمرة بعد وقت قليل من تأسيس كروتون وسيراكوزا[20]. وقد أخطأ إيثور إذ دعاها مستعمرة اللوكريين الأوبنتيين. فقد عاش هؤلاء 3 أو 4 سنوات في زفيروس، ثمّ نقلوا مدينتهم بمساعدة السيراكوزيين، وسكنوا مع هؤلاء الأخيرين [....][21]. وثمّة ينبوع يدعى لوكريا، في المكان الذي نصب فيه اللوكريون معسكرهم. ومن ريغوس إلى اللوكريين 600 مرحلة. وتقوم هذه المدينة فوق تل يدعى إيبوبيوس.

8- ويظنّ بعضهم أن اللوكريين كانوا أوّل من عرف القوانين المكتوبة. وبعد أن عاشوا طويلاً في ظل تشريعات جيّدة، جاءهم ديونيسيوس[22] المطرود من بلاد السيراكوزيين وتعامل معهم بتعسف قل نظيره. فقد كان يدخل حجر نوم الفتيات عندما يكن قد ارتدين أثواب الزفاف، وينام معهن قبيل العرس. ثمّ يطلق أثناء الولائم طيوراً من الحمام مقصوصة الأجنحة، ويرغم الفتيات اللواتي في سن الزواج على مطاردتها وهن عاريات؛ كما كان يرغم بعضهن ممن ينتعلن نعالاً مختلفة (بعضها عال، وبعضها قصير) على أن يركضن حول المكان ليلتقطن الحمامات، وليس له من ذلك غرض سوى الإمعان في الفحش[23]. ولكنّ ديونيسيوس دفع الثمن بعد عودته إلى صقليا لكي يستولي على السلطة من جديد. فقد أباد اللوكريون وحدة حرسه الخاص، واستعادوا حريتهم واختطفوا زوجته وأطفاله. وكان لديه ابنتان وابن بلغ سن الفتوة، لكنّه كان أصغر من شقيقته. أمّا ابنه الثاني أبوللوكراتس، فقد كان يقود الجيش مع والده في أثناء عودته إلى صقليا. ومع أن ديونيسيوس نفسه، والتارانتيين، توسلوا اللوكريين بإلحاح لكي يطلقوا سراح الأسرى وفق الشروط التي يريدونها، إلا أن هؤلاء رفضوا كلّ عرض. فدفعوا ثمن ذلك حصاراً قاسياً ودماراً لبلادهم ونهبها. لقد صب اللوكريون جام غلّهم على ابنتي ديونيسيوس، فاغتصبوهما أولاً، ثمّ خنقوهما خنقاً، وأحرقوا جثتيهما، وطحنوا عظامهما ونثروا المسحوق في البحر. لقد ذكر إيثور قوانين اللوكريين المكتوبة التي صنفها زاليكس مستعيناً بالقوانين الكريتية، واللاكونية، والأريوباغية. فهو يقول، إن زاليكس كان واحداً من أوائل الذين أدخلوا المستجدات الآتية: في الوقت الذي منح فيه المشرعون السابقون القضاة حق تحديد عقوبة

كـلّ جريمـة علـى حـدة، فـإن زالـيـكس حـدّد معيـار العقوبـة ـ في القـوانين نفسـها، لأنـه افترض أن أحـكام القضاة ـ في الحالات عينها لم تكن دائماً متماثلة، مـع أنهـا ينبغـي أن تكون متماثلة. ويثني إيثور على زاليكس لأنه أقر أيضاً قواعد أيسر لعقد الاتفاقيات. وبحسب قوله إن الفوريين الذين سعوا إلى تجاوز اللوكريين ـ في دقّة القرارات، حقّقوا شهرة ذائعة تخطّت شهرة اللوكريين، لكنّهم كانوا أدنى منهم ـ في الميدان الأخلاقي. فالقوانين الجيّدة ليست لتدبير شؤون الذين يرومون حماية أنفسهم بالقانون من شتّى ضروب الاحتيال والدسائس، إنّما لتدبير شؤون الذين يلتزمون التزاماً صارماً بالقوانين الموضوعة وحسب. وكان أفلاطون قد عبر عن هذه الفكرة نفسها بقوله: إن الذين عندهم كثرة من القوانين، هم الذين عندهم دعاوى قضائية كثيرة ومعايير أخلاقية فاسدة، فحيث تكثر الأمراض يكثر الأطباء[24].

9- يجري نهر غاليك الذي يفصل منطقة ريغوس عن لوكريدس، يجري عبر ثغر عميق. وتتجلى هنا خاصية معينة تخص زيز الحصاد[25]: على الضّفّة اللوكرية هذه الحشرات تطنّ، لكنّها على الضّفّة الأخرى صامتة تماماً. ويرون سبب هذه الظاهرة ـ في أن هذه الأخيرة تعيش ـ في منطقة وارفة الظلال ويغطيها الندى بكثافة لا تترك لها مجالاً لكي تفتح أفواهها وتطنّ، بينما الزيزان التي تعيش ـ في الجانب المشمس، تبقى أفواهها جافة ولها قرون، ولذلك يغدو من السهل عليها أن تصدر طنيناً. ويعرضون ـ في لوكرا تمثال إيفنوم عازف القيثارة وعلى قيثارته زيز الحصاد. ويروي تيمييوس أن إيفنوم وأريستون الريغوسي تباريا يوماً ـ في أثناء الألعاب البيثية وتحدى واحدهما الآخر بإلقاء القرعة[26]. فطلب أريستون من الدلفيين أن يمنحوه مساندتهم، لأنّ أسلافه كُرِّسوا ـ في حينهم للإله[27]، ومن هنا خرج الذين بنوا المستعمرة[28]. أمّا إيفنوم فقد أعلن أنه ليس للريغوسيين أي حق ـ في المشاركة بمباريات الغناء، لأنه حتّى زيز الحصاد عندهم لا يغني مع أنه يملك أغنى الأصوات بين الكائنات كلّها. بيد أن أريستون حقّق نجاحاً وانتظر النصر، وقد انتصر، ومع ذلك كرّس إيفنوم التمثال المذكور للإله ـ في مدينته الأم، لأنّ أحد أوتار قيثارته انقطع ـ في أثناء العزف، فأسرع زيز الحصاد وقفز إلى القيثارة ليؤدّي صوت الوتر [الذي انقطع]. ويمتلك البريتيون المنطقة الداخلية الواقعة إلى الأعلى من هذه المدن. فهناك تقع مدينة ماميتري وغابة تدعى سيلا، حيث يستخرجون أفضل أنواع القطران، وهو القطران البريتي. وهذه الغابة غابة كثيفة، غنية بالرطوبة وتمتدّ بطول 700 مرحلة.

10- بعد اللوكريين يأتي ساغرا، وهو نهر يدعى باسم مؤنث. وتقوم على هذا

النهر مذابح مكرّسة للديوسكوري، وقد انتصر عند هذه المذابح 10.000 لوكري وريغوسي على 130.000 كروتوني. ويقال إنه من هنا شاع المثل عن الذين يرتابون دائماً، والمثل يقول: «الحدث الأصدق وقع على ساغرا». ويضيف بعضهم إلى هذا قصة خيالية، إذ زعموا أنه في اللحظة التي بدأت فيها الألعاب الأوليمبية، تلقى المجتمعون هناك خبراً عن هذا الحدث في اليوم نفسه، وزعموا أيضاً أن سرعة انتقال الخبر قد تأكّدت بعد ذلك. ويقال، إن هزيمة الكروتونيين هذه كانت سبباً في أن المدينة لم تعمر بعد ذلك طويلاً بسبب كثرة خسائرها البشرية في تلك المعركة. وتأتي بعد ساغرا كالونيا، وهي مدينة أسّسها الآخيون، وكانت تدعى قبل ذلك آولونيا بسبب الوادي[29] الذي يمتدّ أمامها. وهي خاوية الآن، لأنّ ضغط البرابرة أرغم سكّانها على تركها والفرار إلى صقليا حيث أسّسوا هناك كاولونيا. وتلي هذه المدينة مدينة سكيليسيا، مستعمرة الأثينيين الذين وصلوا إلى هنا بقيادة مينيثييوس؛ وتدعى هذه المدينة الآن سكيلاكيوس. ومع أن الكروتونيين استولوا عليها، إلا أن ديونيسيوس ألحقها باللوكريين. ومن اسم هذه المدينة جاءت تسمية خليج سكيليت الذي يشكّل مع خليج هيبونيات البرزخ الذي أتينا على ذكره من قبل[30]. وعندما قام ديونيسيوس ضدّ اللوكانيين، حاول تحصين البرزخ بسور تحت ذريعة حماية سكّانه من عدوان البرابرة الخارجيين؛ لكنّه كان يسعى في حقيقة الأمر إلى فك تحالف الإغريق بعضهم مع بعض، لكي يستطيع أن يسود على سكّان البرزخ وهو مطمئن. ولكنّ اجتياح البرابرة الخارجيين أفشل خطّته هذه.

11- بعد سكيليسيا تأتي منطقة الكروتونيين والرؤوس البحرية اليابيغية الثلاث، ثمّ يليها لاكينوس، وهو معبد هيرا الذي كان يوماً ما غنياً ومليئاً بتقدمات المؤمنين. إن تحديد المسافات البحرية هنا، مشوب بالغموض؛ فبوليبيوس وحده يعطي حاصل المسافة من الخليج إلى لاكينوس: 2300 مرحلة[31]، ومن هناك إلى رأس يابيغيا بحراً 700 مرحلة. وتدعى هذه النقطة عندهم، ثغر الخليج التارانتي. أمّا ما يخصّ الخليج نفسه، فإن المسافة حوله بحراً، تعدّ كبيرة، إذ تبلغ 240 ميلاً[32]، بحسب كوروغراف، بيد أن أرتيميدور يقول: إنها تبلغ 380 للشخص الذي يبحر بغير حمولة، مع أنه يبقي المسافة عينها لعرض ثغر الخليج[33]. ويتّجه الخليج نحو مطلع الشمس شتاء[34]، وهو يبدأ عند رأس لاكينوس. وفور تجاوزنا لهذه الرأس، نبلغ مدن الآخيين التي لم يعد لها وجود الآن (ما عدا مدينة التارانتيين). لكن شهرة بعض هذه المدن تفرض علينا أن نصفها الوصف الذي تستحق.

12- إن أوّل هـذه المـدن هـي مدينـة كروتـون الواقعـة علـى بعـد 150 مرحلـة عـن لاكينوس؛ ثمّ يأتي نهر إيسار، وميناء، ونهر نييف الآخر، الذي يحكـى أنـه أخـذ اسمـه على النحو الآتي. بعد الحملة الأيليونية ضل بعض الآخيين طريقهم، فدفعتهم الأمـواج إلى هنا ونزلوا علـى الشـاطئ ليتفحصـوا المكـان، ولكـنّ النسـوة الطرواديـات اللـواتي كـنّ يبحرن معهم، أضنـاهن الإبحـار وكرهنـه، فاسـتغلين خلـو السـفن مـن الرجـال وأضـرمن النار فيها. وإذ رأى الآخيون أن الأرض هنا خصبة، وأن سفنهم احترقت، قـرروا البقـاء في المكان. وسرعان ما أخذ آخرون يتوافدون إلى هنـا، ونظـراً لصـلة القرابـة القبليـة أخـذوا يقلدونهم. وهكـذا قامـت علـى هـذه الأرض كـثرة مـن القـرى أخـذ أكـثرهـا أسمـاءه مـن الطرواديين؛ ومن هذا الحدث أخذ نهر نيثوس اسمه أيضاً[35]. فبحسب ما يقولـه أنطـوخ، عنـدما أعلـن الإلـه إرادتـه للآخـيين بوجـوب تأسـيس كروتـون، توجـه ميسـكيلوس إلى هناك لكـي يعاين المكـان بنفسه. بيد أنه لما رأى أن سيباريس كانت قد شيّدت ودعيت باسم النهر المجاور قرّر أن سيباريس أفضـل. وعلـى أي حـال، بعـد أن عـاد أدراجـه، سـأل الإلـه مـرّة أخـرى: ألـيس تأسـيس سـيباريس بـدلاً مـن كروتـون أفضـل. فأجـاب الإلـه (ويذكـر أن مسكيلوس كان أحدب):

ميسكيلوس يا محدودب الظهر، تبحث جانباً عن شيء آخر،
تلتقط الفتات، وتكون شاكراً ما يعطى لك.

وإذ عاد ميسكيلوس أدراجه، أسّس كروتون بمساعدة تلقاها من آرخيوس بـاني سيراكوزا، الذي رسا هناك مصادفة بينما كان متوجهاً ليبني سيراكوزا[36]. وحسـب رواية إيثور، أن اليابيغيين هم من كان يسكن كروتـون مـن قبـل. ويهيـأ لـي أن سـكّان المدينة كانوا يتدربون على فنون الحـرب والمصـارعة. وعلـى أي حـال فـإن الرجـال السـبعة الـذين فـازوا مـرّة في الألعـاب الأوليمبيـة بمسـابقة الجـري، كـانوا مـن الكروتـونيين. ولـذلك أرى أنهـم عـدلوا حيـث قـالوا: «الأخـير بـين الكروتـونيين، جـاء الأول بـين بـاقي الإغريق». ويقولـون إنـه مـن هنـا جـاء المثل القـائل: «أكـثر عافيـة مـن كروتـوني»، لأنهـم كانوا يظنّون أن ثمّة شيئاً مـا في هـذا المكـان مفيـد للصـحّة والقـوة الفيزيائيـة، وهـو مـا يؤكّده خروج كثرة من الرياضيين من هذه البيئة. وفعلاً كان لكروتون العدد الأكـبر من الذين حقّقوا انتصارات في الألعاب الأوليمبية، مـع أن المدينـة لم تعمـر طـويلاً بسـبب خسارتها أعداد كبيرة من مواطنيها[37] في معركـة نهـر سـاغرا. كمـا اشـتهرت المدينـة أكثر، بكثرة الفلاسفة الفيثاغورسيين فيهـا، فميلـون الأشـهر بـين الرياضـيين، كـان تلميذاً عند فيثاغورس (الذي أقام طويلاً في هـذه المدينـة). ويـروى أنـه مـرّة في أثنـاء وجبـة

غداء مشتركة اجتمع فيها الفلاسفة، التوى واحد من أعمدة القاعة، فما كان من ميلون إلا أن وقف مكان العمود وحمل السقف إلى أن خرج الحاضرون، فرماه وخرج هو أيضاً. وربّما كان اعتماده على قوته الجسدية، هو سبب موته الذي يروي عنه بعضهم. فيقولون إنه بينما كان ميلون يعبر يوماً غابة كثيفة الشجر، ابتعد كثيراً عن الطريق، فوجد هناك جذعاً ضخماً غرز فيه إسفين، فأدخل يديه وقدميه معاً في الشقّ الذي أحدثه الإسفين في الجذع، إذ عزم على أن يفلق الجذع تماماً، لكن تبيّن أن قوته لم تكن كافية إلا لانتزاع الإسفين، وما إن فعل حتّى أطبق نصفا الجذع بعضهما على بعض ثانية. فالفى ميلون نفسه حبيس تلك المصيدة، وراح ضحية الكواسر.

13- على بعد 200 مرحلة من كروتون تأتي سيباريس التي بناها الآخيون. وهي تقع بين نهري كراثيدس وسيباريدس. وقد أسّسها المدعو إيس الهيليكي[38]. وكانت المدينة قد حقّقت قديماً نجاحات عظيمة أهلتها لكي تسود على أربع قبائل مجاورة، و25 مدينة؛ ففي حملتها ضدّ الكروتونيين، جندت سيباريس 300.000 مقاتل، وملأ سكّانها المدى على نهر كراثيدس بامتداد 50 مرحلة. لكنّ البذخ والتخنث والغطرسة، أفقدوا السيباريسيين رغد عيشهم كلّه في حربهم مع الكروتونيين، التي تواصلت 70 يوماً. وبعد أن استولى هؤلاء على المدينة، حولوا مجرى النهر إلى المدينة وأغرقوها. ومع مرور الزمن قضى الأثينيون والإغريق الآخرون على هؤلاء السيبارسيين أيضاً، مع أنهم كانوا قد جاؤوا إلى هنا لكي يعيشوا معهم، بيد أنهم ما لبثوا أن احتقروهم، فأبادوهم ونقلوا المدينة إلى مكان آخر يقع على مقربة، ودعوها فوري، على اسم ينبوع يحمل هذا الاسم. ويجعل نهر سيباريس الخيل تجفل عندما تشرب منه، لذلك يسوقون القطعان بعيداً عن هذا النهر. أمّا نهر كراثيدس فيعطي شعر الناس الذين يعومون فيه لوناً أصفر ولوناً أبيض، وتداوي مياهه أمراضاً كثيرة. وبعد سنوات كثيرة عاشتها فوري في بحبوحة وأمان، استعبدها اللوكانيون، وبعد أن انتزع التارانتيون المدينة من اللوكانيين، ترك سكّان فوري المدينة وفرّوا إلى الرومان؛ فأرسل هؤلاء إلى فوري الفقيرة بالسكّان، مستعمرين رومان وبدلوا اسم المدينة إلى كوبي.

14- ويلي فوري حصن لاغاريا الذي أسّسه إيبييوس والثوكيديون. ومن هنا يخرج النبيذ اللاغاري الحلو الخفيف الذي يحظى بشهرة واسعة لدى الأطباء (ويعد النبيذ الفوري واحداً من أشهر أنواع النبيذ). ثمّ تأتي مدينة هيراقليا الواقعة غير بعيد فوق البحر، يليها نهران صالحان للملاحة، هما نهر أكيريس ونهر سيريس. وكانت تقع على هذا النهر مدينة طروادية تحمل اسم النهر عينه. ولكن فيما بعد، عندما

عمـرت هيراقليـا بتـارانتيين مـن هـذه المدينـة، تحوّلـت هـذه الأخـيرة إلى محطـة سـفن للهيراقليين. وكانت سيريس تقع على بعد 24 مرحلة عن هيراقليا، و330 مرحلة عن فوري. وللبرهان على أن الطرواديين أسّسوا المدينة، يستندون عادة إلى تمثال أثينا الإيليونية الخشبي القائم هناك. فيقولون، إن التمثال أغمض عينيه عندما كان الإيونيون الذين استولوا على المدينة يبعدون عنه الذين لجؤوا إليه طلباً للحماية. وكان الإيونيون قد جاؤوا إلى هنا مهاجرين فارين من سيطرة الليديين. فاستولوا عنوة على هذه المدينة التي كانت للهاونيين، ودعوها بوليوس. ولا يزالون حتّى اليوم يعرضون التمثال المغمض العينين. وغني عن البيان القول، إنه من العيب اختلاق مثل هذه الحكايات والتأكيد على أن التمثال أغمض عينيه (ومثل هذا أيضاً زعمهم أن التمثال في إيليون قد استدار في أثناء اغتصاب كاساندرا)[39]، وأنه يمكن رؤيته مغمض العينين أيضاً. ولكنّ الأكثر صفاقة هو الزعم أن تلك التماثيل التي ذكرتها المصادر كلّها، نقلت من إيلون. فمن المعروف فعلاً أن أثينا تدعى بالإيلونية في كلّ من روما، ولافيني ولوكيريا، وسيريتيس، كما لو أنها نقلت إلى هنا من طروادا. وعلى هذا النحو نفسه ينسب سلوك النسوة الطرواديات الجريء، إلى كثير من الأماكن، ويترك انطباعاً غير عادي، مع أنه يمكن أن يكون قد حصل فعلاً. ويرى بعضهم أن سيريتيس وسيباريس اللتين على ترايس[40]، قد أسّسهما الرودوسيون. وبحسب ما يقوله أنطوخ، إن التارانتيين عقدوا اتفاقاً مع الفوريين وقائدهم كلياندريدس (منفي من لاكيديمونيا) في أثناء الحرب التي دارت بين الطرفين للاستيلاء على سيريتيس، وسكنوا سيريس معاً، إلا أن المدينة غدت مستعمرة للتارانتيين. ثمّ دعيت فيما بعد باسم هيراقليا، مبدّلة بذلك اسمها وموقعها.

15- ثمّ تأتي بعد ذلك ميتابونتي، والمسافة من محطة سفن هيراقليا إليها 140 مرحلة. ويقولون إن البيلوسيين الذين أبحروا من إيليون إلى هنا بقيادة نسطور، هم الذين أسّسوها. وبحسب الروايات، أنهم جمعوا من العمل الزراعي ثروات مهولة مكنتهم من أن يقدّموا حزمة ذهبية تقدمة في دلفي. ويرون في تقديم أبناء نيلوس[41] قرباناً للأطياف، برهاناً على أن البيلوسيين هم من أسّس المدينة. ثمّ دمّر السامنيتيون المدينة. وبحسب أنطوخ أن بعض الآخين سكنوا المكان ثانية بعد أن بات مهجوراً، وكان هؤلاء قد تلقوا دعوة من أبناء قبيلتهم في سيباريس للسكن هنا. وكان الآخيون المنفيون من لاكونيا قد دعوهم إلى هنا بسبب كرههم لجيرانهم التارانتيين، ولكي لا يجرؤ هؤلاء على مهاجمتهم. لقد كانت تقوم في المكان مدينتان[42]، ولكن بما أن ميتابونتي كانت هي الأقرب إلى تارانت، فقد أقنع السيباريون الوافدين بالاستيلاء على ميتابونتي.

لأنهم إذا ما امتلكوا هذه المدينة سيتمكنون عندئذٍ، كما زعموا، أن يسيطروا على سيريتيس أيضاً؛ أمّا إذا اتّجهوا إلى سيريتيس فإنهم سيضمون ميتابونتي إلى منطقة التارانتيين الموجودين على أطراف ميتابونتي. وفيما بعد، عندما قاتل الميتابونتيون التارانتيين والإينوتريين القاطنين في داخل البلاد، عقدوا اتفاق سلام معهم كان مشروطاً بالتنازل عن جزء من الأراضي التي باتت حدوداً لإيطاليا ويابيغيا آنئذ. وإلى هنا نقلت الأسطورة أيضاً، ميتابونتس[43]، وميلانيبا الحبيسة وابنها بيوتوس. ويبدو أن أنطوخ يعتقد بأن مدينة ميتابونتي كانت من قبل تدعى ميتاب، ثمّ تبدل اسمها بعد ذلك. أمّا ميلانيبا فلم يأتوا بها إلى ميتاب، بل إلى ديوس، وهذا ما يؤكّده معبد البطل ميتاب، والشّاعر آسيوس الذي يقول، إن بيوتوس:

وديوس ولدتهما في القصور، ميلانيبا الرائعة؛

وهكذا جاؤوا بميلانيبا إلى ديوس لا إلى ميتاب. أمّا مؤسّس ميتابونتي، فهو بحسب إيثور، دافليوس، طاغية كريسا الواقعة على مقربة من دلفي. وثمّة رواية أخرى تقول، إن لوكيبوس هو من أرسله الآخيون لتأسيس المستعمرة؛ وقد منح التارانتيون الأخير هذا المكان لنهار وليلة فقط، لكنّه لم يكن ينوي أن يعيده إليهم؛ فقد كان يقول لمن يأتيه نهاراً ويطالبه بإعادة الأرض، إنه طلب المكان لقضاء الليل فقط، ثمّ يقول لمن يأتيه ليلاً، إنه طلبه لقضاء النهار. ثمّ تأتي بعد ميتابونتي، تارانت ويابيغيا. وأنا أظنّ مبدئياً أنني سوف أتحدّث عنهما بعد أن أصف الجزر الواقعة أمام إيطاليا. فدأبي هو أنني بعد أن أصف أي قوم، أضيف إلى ذلك دوماً وصف الجزر المجاورة، وهذا ما سأفعله الآن، فبعد أن أصل إلى آخر إينوتريا (التي لم يدع الجيل السابق سواها باسم إيطاليا)، أرى من حقي أن أحافظ على هذا النظام نفسه، فأبدأ بوصف صقليا والجزر الواقعة حولها.

الفصل الثاني

1- لقد جاءت صقليا على شكل مثلث، ولذلك دعيت في الماضي، تريناكريا، ثمّ بدلت اسمها بعد ذلك إلى ثريناكيديس[1]. ويتحدّد شكل هذه الجزيرة بثلاث رؤوس: بيلوريادا الذي يشكّل مع كينيوس وعمود الريغيين مضيقاً، ثمّ باهين الممتدّ نحو الشرق؛ وهو يشاطئ البحر الصقلي ويتّجه نحو البيلوبونيز والمضيق البحري عند كريت؛ والرأس الثالثة، هي رأس ليليبيه، المجاورة لليبيا والمتجهة في الآن عينه نحو ليبيا والمطلع الشتوي للشمس[2]. وفيما يتعلّق بأضلاع [المثلث] التي تحتجز هذه الرأس، فإن اثنتين منها مقعرتان بعض الشيء؛ والثالثة الممتدّة من ليليبيه إلى البيلوبونيز محدّبة

[بقـوة]؛ وهـي الضـلع الأكثـر طـولاً بـين الأضـلاع الـثلاث، إذ يبلـغ طولـها 1700 مرحلـة، كما يقول بوسيدونيوس، مع أنه يزيد 20 مرحلة أخرى. أمّا أقصر الأضلاع فهي الضلع المجاورة للمضيق وإيطاليا. وهي تمتدّ من بيلوريادا إلى باهين بطول يقارب 1300 مرحلة. ويحـدّد بوسـيدونيوس الخـطّ البحـري الـذي يلتـف حـول الجزيـرة بـ 4400 مرحلـة. ولكـنّ المسافات في الكوروغرافيا[3] تعدّ أكبر؛ فهي مجزأة إلى أقسام ومعكوسة في أميال. وعلى وجه التحديد، من بيلوريادا إلى ميلي 25 ميلاً؛ ومثلها من ميلي إلى تينداريدا؛ ثمّ إلى أغاثيرن 30 ميلاً، ومثلها إلى أليسا، ومرّة أخرى مثلها إلى كيثاليدس (وهذه المدن كلّها مدن صغيرة)؛ وإلى نهر هيميرا الذي يجري عبر مركز صقليا 18 ميلاً؛ ومن هناك إلى بانورم 35 و23- إلى إيمبوريوس الإيجيستيين؛ وأخيراً ما تبقى من المسافة إلى ليليبيه 38 ميلاً، وإلى إيمبوريوس الأكراغانتيين 20 ميلاً و20 ميلاً أخرى إلى كامارينا؛ ثمّ إلى باهين 50 ميلاً. ومن هنا على امتداد الضلع الثالثة إلى سيراكوزا 36 ميلاً. ولكن الطريق البرية من باهين إلى بيلوريادا 168 ميلاً، ومن ميسينا إلى ليليبيه على طريق فاليري 235 ميلاً. بيد أن بعضهم كإيثور مثلاً، يدلون برأي ملتبس: «الجولة البحرية حول الجزيرة تستغرق خمسة نهارات وخمس ليالي». أمّا بوسيدونيوس الذي يحدّ حدود الجزيرة «بالأقاليم»[4]، فيوضّع بيلوريادا إلى الشمال، وليليبيه إلى الجنوب وباهين إلى الشرق. ولكن بما أن «الأقاليم» تنقسم إلى متوازيات أضلاع، فإنه من الضروري ألا تتوافق المثلثات المدرجة، مع الأقاليم[5] بسبب تقوّسها (المثلثات كلّها ليست متساوية الأضلاع، ومنها التي لا يتوافق أي ضلع من أضلاعها مع أيّ ضلع من أضلاع متوازي الأضلاع). ومع ذلك فإنه يمكن القول بحق، بخصوص «أقاليم» صقليا التي تقع إلى الجنوب من إيطاليا، إن بيلوريادا هي أقصى زاوية شمالية من الزوايا الثلاث. ولذلك فإن الخطّ الممتدّ من بيلوريادا إلى باهين سيمتدّ باتجاه الشرق في الوقت الذي يكون فيه ممتدّاً [في الوقت عينه] نحو الشمال، ويشكّل أيضاً الضلع التي تتّجه نحو المضيق. وينبغي أن تنحرف هذه الضلع قليلاً باتجاه المطلع الشتوي[6] للشمس، لأنّ الخطّ الساحلي ينحني في مثل هذا الاتجاه إذا ما تقدّمت من كاتانا إلى سيراكوزا وباهين. والمعبر من باهين إلى مصبّ ألثييوس 4000 مرحلة. ولكن عندما يقول أرتيميدور، إن المسافة من باهين إلى تينار 4600 مرحلة، ومن ألثييوس إلى باميس 1130 مرحلة، فإنه يهيأ لي أنه يقدّم بذلك حجة التأكيد على أنه لا يوافق مع من يرى أن المسافة من باهين إلى ألثييوس 4000 مرحلة. وربّما كانت الضلع التي تمتدّ من باهين إلى ليليبيه، والتي تقع بعيداً إلى الغرب من بيلوريادا، ربّما كانت نفسها تشكّل انعطافاً مهماً عن النقطة

الجنوبية[7] باتجاه الغرب وتتّجه في الوقت عينه نحو الشرق والجنوب[8]، مشاطئة في جزء منها البحر الصقلي وفي جزئها الآخر البحر الليبي الذي يمتدّ من منطقة قرطاجة إلى السرتين. ويشكّل أقصر معبر من ليلبيه إلى ليبيا في ضواحي قرطاجة، 1500 مرحلة. ويروى أن رجلاً حاد البصر وقف على نقطة مراقبة وأخبر سكّان ليلبيه بعدد السفن التي خرجت إلى البحر من قرطاجة[9]. والضلع الممتدّة من ليلبيه إلى بيلوريادا تنعطف بالضرورة نحو الشرق وتتّجه إلى المدى الممتدّ بين الغرب والشمال[10]، بينما تقع إيطاليا إلى الشمال، والبحر التيراني وجزر إيولوفيا إلى الغرب.

2- إن المدن الواقعة على الضلع التي تشكّل المضيق، هي أولاً، ميسينا، ثمّ تافرومينيا، وكاتانا، وسيراكوزا. واختفت ناكسوس[11] وميغارا[12] الواقعتان بين كاتانا وسيراكوزا حيث يقع مصبّ سيميف وكلّ الأنهار المنحدرة من إيتنا؛ وثمّة عند مصبّات الأنهار مراس جيّدة. وتقع هنا أيضاً رأس كسيفونيا البحرية. وبحسب إيفور أن هذه المدن كانت أولى المستوطنات الإغريقية التي أسّسها في صقليا الجيل الإغريقي العاشر بعد حرب طروادا. فإغريق الزمن الأقدم كانوا يخشون القراصنة التيرينسيين ووحشية البرابرة في هذه المنطقة، ولذلك لم يأت أحد إلى هنا بهدف التجارة. ومع أن ثيوكليس، الأثيني الذي حملته العاصفة البحرية إلى صقليا، لاحظ ضعف السكّان المحلّيين وخصوبة أراضيهم، لكنّه بعد أن عاد إلى دياره عجز عن إقناع الأثينيين. لقد أخذ معه كثيراً من الخلكيديين من إيبيوس، وعدداً من الإيونيين والدوريين (كان أكثرهم من الميغاريين)، وأبحر إلى صقليا. وهكذا أسّس الخلكيديون ناكسوس، والدوريون ميغارا التي كانت تدعى من قبل جيبلا. ولم يعد لهذه المدن وجود الآن، بقي فقط اسم جيبلا بفضل النوعية العالية للعسل الجيبلي.

3- وفيما يخصّ المدن التي سلمت على الضلع المذكورة، فإن ميسينا تقع في خليج رأس بيلوريادا الذي يتقوّس بعيداً نحو الشرق ليشكّل تجويفاً يشبه الإبط. ومع أن المسافة من ريغوس إلى ميسينا لا تشكّل سوى 60 مرحلة، لكنّها أقل بكثير إذا ما انطلقنا من عمود الريغيين. وميسينا أسّسها الميسينيون الذين جاؤوا من البيلوبونيز، وبدّلوا اسمها. فالمدينة كانت تدعى قبل ذلك زانكلا، لأنّ ساحلها ملتو (فكلمة zanklion[13] تعني شيئاً ما ملتوياً)؛ وفي الأول كان الناكسوسيون هم الذين أسّسوا هذه المدينة، وكان هؤلاء يعيشون قبل ذلك على مقربة من كاتانا؛ وفيما بعد سكن المدينة المامرتينيون، وهم إحدى قبائل كامبانيا. وكانت المدينة عند الرومان نقطة استناد لهم في الحرب الصقلية ضدّ القرطاجيين. وفيما بعد حشد سيكستون بومبيوس

أسطوله هنا في حربه ضدّ أغسطس قيصر؛ واضطر إلى الفرار من هنا أيضاً عندما طردوه من الجزيرة. وعلى مسافة غير بعيدة يعرضون أمام المدينة في المضيق إحدى الهاريبيدس[14]: اللجّة المريعة، التي تجذب تيارات المضيق المرتدة السفن التي تقذفها الأعاصير الجبّارة والدوامات المائية إليها. وعندما تبتلع اللجة السفن وتحوّلها الأمواج إلى حطام، فإن التيار يدفع الكسرات إلى شاطئ تافرومينيا الذي لهذا السبب سمّي كابري[15]. وقد تفوّق المامرتيون على الميسينيين، إلى درجة أنهم يتحكمون بالمدينة، وغالباً ما يدعو كلّهم سكّانها بالمامرتيين وليس بالميسينيين. وبما أن المدينة غنية جدّاً بالنبيذ، فإنهم لا يدعون هذا النبيذ ميسينياً بل مامرتياً، وهو ينافس أفضل أنواع النبيذ الإيطالي. وعدد سكّان المدينة كبير، لكنّه أقل من عدد سكّان كاتانا، لأنّ هذه الأخيرة استقبلت مستعمرين رومان. وعدد السكّان في تافرومينيا أقلّ مما في كلّ من هاتين المدينتين. وكاتانا أسّسها أولئك الناكسوسيون أنفسهم، بينما أسّس تافرومينيا الزانكليون من جيبلا. وقد سُلبت كاتانا مؤسيسها الأوائل عندما أسكن هيرون تيران سيراكوزا آخرين هناك ودعا المدينة إيتنا بدلاً من كاتانا[16]. كما يصفه بنداروس بأنه مؤسّس إيتنا، عندما يقول:

أصغ إلى كلماتي
القرابين المقدّسة[17]
للسميّ مؤسّس إيتنا

(*مقطع 105، بيرغك*)

ولكن بعد موت هيرون[18] عاد الكاتانيون إلى ديارهم، فطردوا السكّان ودمّروا قبر التيران[19]. أمّا الإيتنيون فبعد أن غادروا المدينة سكنوا منطقة إيتنا الجبلية، في إينيسا. وقد أطلقوا على هذا المكان الذي يبعد 80 مرحلة عن كاتانا اسم إيتنا وأعلنوا هيرون مؤسساً لها. وتقع إيتنا في الشطر الداخلي من البلاد، تماماً فوق كاتانا، وقد كانت الأكثر تعرضاً للحمم التي قذفتها البراكين النشطة. والواقع أن تيارات السائل البركاني تنطلق على مقربة من منطقة كاتانا. ويروون هناك قصة الوالدين الصالحين أمفينوم وأنابيوس اللذين عندما حلت الكوارث حملا والديهما على أكتافهما وأنقذاهما. وحسب بوسيدونيوس أنه في كلّ مرّة ينشط فيها البركان تغطي حقول الكاتانيين طبقة سميكة من الرماد البركاني. والحقيقة أن الرماد يسبب للبلاد الأذى لبعض الوقت، لكنّه على المدى الطويل يخدم صالحها؛ فهو يساعد على نموّ دوالي العنب وسواها من المحاصيل الرائعة الأخرى، بينما لا يعطي الشطر الآخر من

البلاد مثل هذا النبيذ الفاخر. ومن جذور [الغلال] التي تنمو في الحقول التي يغطيها الرماد البركاني، تغدو الأغنام، كما يقولون، سمينة إلى درجة أنها تنفق من فرط السمنة. ولذلك يلجؤون كلّ 4 إلى 5 أيام إلى فصد دمائها من آذانها، وهذا ما كنت قد تحدّثت عن مثله[20]، ففي منطقة أريثيا يفعلون الشيء نفسه. ولكن عندما يتصلّب السائل البركاني، فإنه يحوّل سطح الأرض بعمق كبير إلى صخر صمّ. ولذلك على من يرغب في شقّ سطح الأرض أولاً، أن يحفر في الصخر. فعندما تنصهر الصخور الجبلية في الفوهات البركانية ثمّ تقذف إلى سطح الأرض، فإن السائل الذي يسكب على القمة يشكّل طينة سوداء وينحدر إلى الأسفل عبر الجبال، ثمّ بعد أن يتصلب يتحوّل إلى صخرة صغيرة تحافظ على لون الحالة السائلة عينه. والرماد المتطاير أثناء احتراق الصخور يشبه ذلك الذي يتطاير لدى احتراق الخشب. وعلى النحو الذي يتغذى فيه نبات السدب برماد الخشب، كذلك رماد إيتنا له على أغلب الظنّ خاصيات تساعد جفنات العنب [على النمو].

4- لقد أسّس سيراكوزا آرخيوس الذي أبحر من كورينثوس في حوالي الوقت نفسه الذي تأسّست فيه المستوطنات في ناكسوس وميغارا. ويروى أنه في الوقت الذي وصل فيه ميسكيلوس إلى دلفي، وصل إليها آرخيوس أيضاً، وعندما سألا المتنبّئ، أجابهما الإله بسؤال: ما الذي يختارانه، الثروة أم الصحّة؟ فاختار آرخيوس الثروة، بينما اختار ميسكيلوس[21] الصحّة. وعلى هذا النحو مكّن الإله آرخيوس من تأسيس سيراكوزا، وميسكليوس من تأسيس كروتون. وما حصل فعلاً، هو أن الكروتونيين سكنوا في مدينة صحّية جدّاً (كما كنت قد أسلفت)[22]، بينما حقّقت سيراكوزا درجة من الثراء والبحبوحة جعلت ثراء سكّانها يذهب مثلاً، إذ يقول المثل: «لا يكفيه حتّى عشر ثروة السيراكوزيين». وعندما أبحر آرخيوس بعد ذلك إلى صقليا، ترك كيرسيكراتوس الذي من سلالة الهرقليين، مع فريق ممن كانوا معه ليساعدوه على استيطان كيركيرا المعاصرة، التي كانت تدعى من قبل سكيريا. ولكنّ كيرسيكراتوس طرد الليبورنيين الذين كانوا يسكنون الجزيرة؛ واستوطنها هو، أمّا آرخيوس فقد رسا في زيفيروس. وقد وجد هناك بعض الدوريين الذين جاؤوا من صقليا وتخلفوا عن أولئك الذين بنوا ميغارا. فأخذهم آرخيوس إليه وأسّس معهم سيراكوزا. ونمت المدينة وتطورت بفضل خصوبة تربتها ومواقع موانئها الملائمة. وقد ظهر أن سكّان سيراكوزا قادرون على إدارة شؤون الجزيرة، وحدث أنهم بينما كانوا خاضعين لسلطة التيرانية، سادوا على الآخرين، وإذ تحرّروا هم، حرّروا معهم أولئك الذين كانوا

يضطهدهم البرابرة. أمّا فيما يتعلّق بالبرابرة، فإن بعضهم كان من السكّان المحلّيين، بينما جاء الآخرون من البر المقابل. ولم يسمح الإغريق لأيٍّ كان بأن يستولي على الساحل، لكنّهم في الوقت نفسه كانوا عاجزين عن طردهم كلياً من المنطقة الداخلية. وحتّى الآن لا يزال السيكيليون، والسيكانيون، والمورجيتيون وبعض الآخرين يعيشون على الجزيرة؛ فقد كان بينهم أيضاً الإيبيريون الذين قال عنهم إيثور إنهم أوّل البرابرة الذين استوطنوا صقليا. وقد يكون المورجيتيون هم الذين أسّسوا مورغانتي. وكانت هذه [من قبل] مدينة، بيد أنه لم يعد لها الآن وجود. وبعد أن جاء القرطاجيون إلى الجزيرة لم تتوقف هجماتهم على البرابرة والإغريق، لكنّ السيراكوزيين قاوموهم. وفيما بعد طرد الرومان القرطاجيين من هناك واستولوا على سيراكوزا حصاراً. وفي زمننا هذا عندما تسبب بومبيوس بالأذى لمدن الجزيرة كلّها، ولسيراكوزا أيضاً، فإن أغسطس قيصر أرسل إلى هناك مستعمرين، وأعاد بناء عدد كبير من المستوطنات القديمة. وفي الزمن القديم كانت هذه هي المدن الخمس بتحصينات محيطها 180 مرحلة. ولم تكن هناك حاجة البتة لإعمار هذه الدائرة كلّها بالناس، لكنّه رأى أنه من الأفضل إعادة بناء الشطر المسكون، أي الشطر المجاور لجزيرة أورتيغيا التي شكّلت بحد ذاتها مدينة مهمّة من مدن المحيط. فأورتيغيا تقع على مقربة من البر، ويصلها به جسر. وفي الجزيرة ينبوع أريفوسا الذي يسكب مياهه في البحر مباشرة. وتروى حكاية أسطورية تقول: إن نهر أريفوسا، هو نهر ألثييوس الذي ينبع من البيلوبونيز، لكنّه يجري تحت الأرض عبر البحر حتّى أريفوسا ثمّ يصبّ من هناك في البحر ثانية. وللبرهان على هذا يسوقون وقائع على شاكلة ما يلي: ثمّة كأس ما سقطت في مياه النهر في أوليمبيا، وحملتها الأمواج إلى هنا، إلى هذا الينبوع؛ وزعموا أن مياه الينبوع تتعكر بسبب ذبائح الثيران التي تقدّم قرابين في أوليمبيا. وتبعاً لهذه الحكاية يقول بينداروس:

استراحة ألثييوس المقدّسة

نجل سيراكوزا الماجد، أورتيغيا

وبالتوافق مع بينداروس يؤكّد تيمييوس المؤرّخ الأمر نفسه. ولكن لو كان ألثييوس يهوي في هاوية ما، قبل أن يصبّ في البحر، لكان ثمّة احتمال ما، في أن النهر يعبر تحت الأرض ليجري حتّى صقليا محافظاً في أثناء سيره على مياهه العذبة غير مخلوطة بمياه البحر. ولكن بما أن مصبّ النهر مكشوف لدى دخوله مياه البحر، وليس هناك في المضيق البحري[23] أي فتحة ظاهرة[24] لتبتلع تيار النهر (مع أنه حتّى في

هذه الحالة لن تبقى مياه النهر عذبة تماماً على امتداد هذا المجرى كلّه، في أقل تقدير في القسم الأكبر، إذا ما جرى النهر في الأعماق عبر مجراه تحت الأرض)، فإن حصول هذه الظاهرة أمر مستحيل بالتأكيد. فمياه أريفوسا تؤكّد العكس، لأنها صالحة للشرب. وليس الزعم بأن التيارات النهرية إذ تقطع هذا الامتداد كلّه عبر مضيق بحري من غير أن تختلط بمياه البحر وصولاً حتّى مصبّها في مجرى سفلي مختلف، سوى هراء صرف. وواقع الأمر أنه بالكاد يمكننا أن نصدّق أن هذا حصل لنهر رودان الذي لا يخلط ماءه إذ يجري عبر البحيرة وجريانه ظاهر للعيان، ولكن حتّى المسافة هناك ليست كبيرة، والبحيرة هادئة، أمّا هنا عند صقليا، حيث تحدث عواصف رهيبة وتندفع أمواج عاتية؛ إنها قصة مستحيلة. وقصة الكأس تجعل اللامعقولية أقوى، لأنّ الكأس بحدّ ذاتها لا تتبع مجرى أي نهر بسهولة، فما بالك بنهر يجري هذه المسافة الطويلة كلّها عبر مثل هذه المضائق. وغني عن البيان القول، إن أنهاراً كثيرة تجري تحت الأرض في كثير من بلدان العالم، ولكن ليس هذه المسافة الطويلة كلّها. وحتّى لو كان هذا ممكناً. فإن الحكاية الواردة أعلاه مستحيلة، وهي تذكرنا بأسطورة إيناخوس. يقول سوفوكليس:

... ينحدر من القمم البيندوفية

ومن لاكمون، ومن مملكة البيريبيين.

إلى الأمفيلوخيين والأكارنانيين

تياراته تخالط الأخليوسية

ثمّ يقول بعد قليل:

ومن هنا إلى آرغوس، يفلق الأمواج،

وإلى أطراف شعب ليركيه يجري

(سوفوكليس. دراما نقدية. مقطع 249، ناؤوك)

ومثل هذه الحكايات يشيعها الكتّاب الذين ينقلون إينوبس من نيلوس إلى ديلوس. ويلوم زويلوس البلاغي المعروف، يلوم هوميروس على إنشائه الأساطير، ويؤكّد في «مديحه للتيندوسيين» أن ألثييوس يجري من تينيدوس. وبحسب إيفيكوس أن أسوبوس في سيكيون، يجري من فريجيا. ولكنّ الإشارة الأصح، هي إشارة هيكاتوس الذي يقول، إن نهر إيناخوس في منطقة الأمفيلوخيين، والذي يجري من لاكمون (ومن هناك ينبع إيانتوس أيضاً)، يختلف عن نهر آرغوس، وقد منحه اسمه

هـذا، أمفيلوخـوس نفسـه الـذي أعطـى مدينـة آرغـوس الأمفيلوخيـة اسمهـا. وحسـب هيكاتوس، إن إيناخوس هذا يصبّ في أخيلوس، أمّا إيانتوس فإنه يجري في أبوللونيا غرباً. وعلى جانبي جزيرة أورتيغيا ميناءان كبيران، والأكبر منهما امتداد محيطه 80 مرحلة. وقد أعاد قيصر بناء هذه المدينة وكاتانا، كما أعاد أيضاً بناء كينتوريبا التي سهلت له كثيراً تحقيق النصر على بومبيوس. وتقع كينتوريبا فوق كاتانا على الحدود مع جبال إيتنا ونهر سيميف الذي يجري في منطقة كاتانا.

5- أمّا فيما يخصّ ضلعي صقليا الأُخريين، فإن الضلع التي تمتدّ من باهين إلى ليليبيه مهجورة تماماً، على الرغم من بقاء بعض أطلال المستوطنات القديمة، ومنها مستوطنة كامارينا، وهي مستعمرة للسيراكوزيين. ولكنّ أكراغينت (التي كانت مستعمرة سكّان جيلا) ومرساها، وكذلك ليليبيه لا تزالان على قيد الحياة. وبما أن هذه المنطقة عانت كثيراً من هجمات قرطاجة، فإن الشطر الأكبر منها دمّرته الحروب الطويلة المتواصلة. وآخر أضلاع صقليا وأطولها، مسكونة، وإن تكن كثافة سكّانها ضعيفة، إلا أنها كافية. وتقع هنا مدن صغيرة مثل: أليسا، وتينداريدا، وإيمبوريوس الإيجيستيين، ووكيثاليدس: أمّا في بانورم فثمّة مستعمرة رومانية. ويروى أن مرافقي فيلوكتيتيس هم الذين أسّسوا إيجيستيا بينما كانوا في طريقهم إلى منطقة كروتون (كما أشرت في وصفي لإيطاليا)[25]. وكان فيلوكتيتيس قد أرسلهم إلى صقليا تحت قيادة إيجيستوس.

6- وفي داخل البلاد تقع مدينة إينّا (حيث يقوم معبد ديميترا)، التي ليس فيها سوى عدد قليل من السكّان. وتقع المدينة على هضبة تحيط بها تلال فسيحة صالحة للعمل الزراعي. وقد عانت إينّا أكثر ما عانت من إيفنوس وعبيده الفارّين الذين حوصروا هناك ولم يتمكّن الرومان من القضاء عليهم إلا بصعوبة. والمأساة عينها حلّت بسكّان كاتانا وتافرومينيا وبعض المدن الأخرى. كما جرى أيضاً استيطان إريكس، وهي هضبة عالية يقوم فوقها معبد لأفروديت يحظى بأعظم تبجيل. وفي الزمن القديم كان المعبد مليء بالإماء المعبديات اللواتي كرّسهن سكّان صقليا تقدمات نذروها للمعبد، كما كان يفعل ذلك كثير من الغرباء أيضاً. ولكنّ المعبد وكذلك المستوطنة[26]، باتا الآن خاويين، وترك المعبد حشد الخدم الذي كان مقيماً فيه. ويوجد في روما معبد، هو نسخة طبق الأصل عن معبد هذه الآلهة، ويدعى هنا معبد فينوس إيريكينا، وهو يقوم أمام البوابات الكوللينية، وله رواق يحيط به. أمّا باقي المستوطنات[27]، والشطر الأكبر من المنطقة الداخلية، فقد باتا ملكية للرعاة. فعلى

obeikandl.com

حدّ علمي أن هيميرا، وجيلا، وكالليبوليس، وسيلينونت، وإيبيوس وبعض الأماكن الأخرى، لم تعد مسكونة. ومن هذه المدن أسّس الزنكليون الذين جاؤوا من ميلي، مدينة هيميرا؛ وأسّس الناكسوسيون كالليبوليس، وميغاريوّ ميغارا الصقلية سيلينونت، وأخيراً أسّس الليونتينيون إيبيوس. كما دمّر كثير من مدن البرابرة، كمدينة كاميكي، مقرّ الملك كوكال الذي تقول الرواية، إن مينوس قتل عنده غدراً. وإذ لاحظ الرومان خلوّ البلاد، شغلوا المناطق الجبلية فيها والشطر الأكبر من سهولها، وأعطوا هذه الأماكن ملكاً لمربي الخيول، ورعاة الثيران، ورعاة الأغنام. ولم يكن من النادر أن يضع هؤلاء الرعاة الجزيرة في وضع شديد الخطورة: في بادئ الأمر مارس هؤلاء السلب والنهب وقطع الطرقات فرادى، ثمّ أخذوا يتجمّعون في عصبات تنهب القرى. مثلاً: عندما استولى إيفنوس ومن معه على إينا. ومنذ زمن قريب، في أيامنا هذه، سيق إلى روما المدعو سيلور الملقب «ابن إيتنا» الذي كان يقود عصابة مسلحة أنهكت ضواحي ايتنا بغزواتها. وأنا رأيت بأمّ العين كيف مزقته الكواسر أثناء الاحتفال الذي نظم فيه قتال الكواسر. لقد وضعوا المجرم قاطع الطريق على منصة عالية، ترمز إلى إيتنا؛ وفجأة انهارت المنصة، وسقط المجرم في قفص الكواسر الذي وضع تحت المنصة التي تحطمت بسهولة لأنها بنيت أصلاً ضعيفة لتحقّق هذا الغرض.

7- ومن المفيد أن نتحدّث عن خصوبة هذه البلاد التي نالت مديح جميعهم، والتي يقال إنها ليست أقل من إيطاليا. بل يمكننا القول، فيما يخصّ الحبوب، والعسل، والزعفران وبعض الغلال الأخرى، إن صقليا تتفوّق على إيطاليا. وما يواتي هذا أيضاً موقع الجزيرة على مقربة. فهذه الجزيرة تعدّ بصورة ما جزءاً من إيطاليا، وهي تزوّد روما بشتّى السلع من غير أيّ صعوبات تذكر، بحيث يبدو كأن هذه السلع آتية إليها من حقول إيطاليا. ومن المعروف أن صقليا تسمى مخزن روما، لأنّ السلع كلّها، ما خلا بعضها الذي يستهلك محلّياً، تنقل إلى روما. ولا ينسحب هذا على الغلال فقط، بل يشمل المواشي، والجلود، والصوف، و... وبحسب بوسيدونيوس أن سيراكوزا وإريسك قد شيدتا على البحر كحصنين، بينما ترتفع إينا بينهما فوق السهول المحيطة. كما نهبت المنطقة الليونتينية التي كان يملكها الناكسوسيون. ومع أن الليونتينيين كانوا دائماً يشاركون السيراكوزيين أحزانهم، إلا أنهم لم ينالوا دائماً نصيبهم من أفراحهم.

8- وعلى مقربة من كينتوريب تقع مدينة إيتنا التي ذكرناها قبل قليل، وسكّان هذه يستقبلون ويودعون الذين يصعدون الجبل، لأنّ قمّة هذا الأخير تبدأ هنا. وقمّة الجبل هذه خالية من النباتات ويغطيها الرماد، أمّا في الشتاء فتكسوها الثلوج،

بينما تنقسم المناطق السفلى إلى غابات، ومناطق تغطيها شتّى أنواع المزروعات. ويبدو أن قمة الجبل تتعرض لتبدّلات متكررة يسببها انتشار النار التي تلتقي أحياناً في فوهة واحدة، وتتوزّع أحياناً أخرى على كثير من الفوهات، وتنطلق في غضون ذلك تيارات من السائل البركاني أحياناً، ولهب وسحب من الدخان أحياناً أخرى، بل تنطلق بين وقت وآخر كتل من المعدن المتوهج. وبفعل هذه الظاهرات ينبغي أن تتغيّر في الوقت نفسه الممرّات الجوفية، وتظهر على سطح الجبل حول الفوهة فتحات كثيرة في بعض الأحيان. وعلى أي حال فإن الذين صعدوا مؤخراً إلى الجبل نقلوا لي الرواية الآتية. لقد اكتشفوا على القمة سهلاً أملس يقارب امتداد محيطه 20 مرحلة. والسهل محاط بمرتفع من الرماد لا يتجاوز ارتفاعه ارتفاع سياج صغير، وكان على من يرغب دخول السهل أن يقفز من فوق هذا السياج. ورأى الزوار في وسط السهل هضبة[28] رمادية اللون، مثلها مثل سطحها الذي يرى من فوق؛ وكانت تقف ساكنة فوق الهضبة، سحابة يقارب ارتفاعها 200 قدم (لأنه لم تكن هناك ريح)، تشبه الضباب. فقرر اثنان منهما أن يدخلوا السهل، ولكن حينما غدت الرمال التي يسيران عليها أشد سخونة وعمقاً، عادا أدراجهما ولم يستطيعا أن يخبرا أي شيء مختلف عمّا رآه المراقبون عن بعد. وقد افترضوا أنه على أساس مثل هذه المشاهدات ظهر كثير من الروايات الخيالية، خاصة من نوع تلك التي يروونها عن إيمبيدوكلس: لقد زعموا أنه قفز في فوهة البركان وترك أثراً يدل على ذلك الحدث، وهو فردة حذائه النحاسي، التي زعموا أنه عثر عليها وقد قذفت بها النار على أطراف الفوهة. ولكنّ الاقتراب من هذا المكان فعلاً أو رؤيته، أمر غير ممكن؛ فافترضوا أنه لا يمكن رمي أيّ شيء في الفوهة بسبب الريح المواجهة التي تهبّ من الأعماق، وشدّة الحرارة التي من المؤكد أنها تلفح من بعيد قبل أن يقترب المرء من الفتحة بمسافة طويلة. ولكن حتّى لو رمينا شيئاً ما في فوهة البركان، فلا ريب في أنه سينصهر قبل أن يقذف عائداً بالشكل الذي كان عليه سابقاً. والحقيقة أنه ليس هناك ما هو مستغرب في أن تتوقف الرياح والنيران بعد أن تنفذ المادّة الملتهبة، ولكنّ الذي لا ريب فيه، هو أن هذا لا يحصل بدرجة تسمح للإنسان الذي يصارع مثل هذه القوّة العاتية، أن يدنو إلى مسافة قريبة. والحقيقة أن إيتنا تعلو فوق الساحل أكثر مما عند المضيق وفي منطقة كاتانا، لكنّها تعلو كذلك فوق الساحل على طول البحر التيراني، وتعلو فوق الجزر الليبارية. ومع أن القمة تسطع ليلاً بضوء ساطع، إلا أن الدخان والظلام يلفانها نهاراً.

9- وترتفع قبالة إيتنا جبال نيبرودا، ولكنّها في الحقيقة أدنى من إيتنا، بيد أنها

أعرض منها بكثير. والجزيرة كلّها من الداخل تحت الأرض جوفاء؛ فهي مليئة بالأنهار الجوفية والنيران، مثلها في هذا مثل البحر التيراني وصولاً إلى منطقة كوما، وهو ما تحدّثت عنه سابقاً[29]. وعلى أيّ حال فإن أماكن كثيرة في الجزيرة تنبثق فيها ينابيع مياه حارّة؛ ومن هذه الينابيع ينابيع المياه المالحة في سيلينونت وهيميرا، ولكنّ الينابيع الإيجيستية مياهها صالحة للشرب. وتقع في ضواحي أكراغينت بحيرات طعم مياهها كطعم مياه البحر، لكن لها طابعاً خاصاً؛ فحتّى الذين لا يعرفون السباحة قط، لا يغرقون في مياهها، بل يطفون على سطحها كما تطفو الأخشاب. وثمّة عند بحيرة باليكي فوهات تقذف مياهاً على سطح مسيل مقبب ثمّ تبتلعها من جديد في التجويف نفسه. وفي كهف يقع عند ميتاور[30] ممرّ جوفي مهول، يجري عبره نهر غير مرئي لمسافة طويلة، ثمّ يندفع بعد ذلك إلى السطح كنهر العاصي في سوريا[31]، الذي يهوي في هاوية سحيقة (تدعى هاريبدس، تقع بين أفاميا وأنطاكيا)، ثمّ يظهر ثانية بعد 40 مرحلة. وتحدث مثل هذه الظاهرات على نهر دجلة[32] في وادي الرافدين، ونهر النيل في ليبيا على مقربة من مصبّيهما. وفي منطقة ستيمفاليا[33] تجري المياه تحت الأرض مسافة 200 مرحلة، ثمّ تخرج إلى السطح في منطقة آرغوس نهراً يدعى إراسين؛ وبعد ذلك تختفي مرّة أخرى تحت الأرض على مقربة من آسيا الأركادية، وتعود أخيراً لتظهر بعد مسافة طويلة نهرين هما نهر إيفروت ونهر ألثيوس. ولذلك فإن هناك من يصدّق الرواية الخيالية التي تقول: إذا مارمي إكليلان تقدمة للنهرين في مجرى واحد، فإن كلّ إكليل سيتّجه إلى النهر الذي كرّس له. وأنا كنت قد تحدّثت عمّا يروون في هذا السياق عن نهر تيماف[34].

10- وتشبه هذه الظاهرات والظاهرات التي تحدث في صقليا، ظاهرات نقف عليها في الجزر الليبارية وفي ليبارا نفسها. وعدد هذه الجزر 7 جزر. أكبرها ليبارا (وهي مستعمرة الكنيديانيين)، وهي الأقرب إلى صقليا بعد ثرميسّا. وكانت ليبارا تدعى من قبل ميليغونيس. وكانت تملك أسطولاً قاومت به زمناً طويلاً غزوات التيرينيين، لأنها كانت تفرض سيطرتها على ما يدعى بالجزر الليبارية التي يدعوها بعضهم بالجزر الإيولوفية. زد إلى هذا أن ليبارا غالباً ما كانت تزخرف معبد أبوللون في دلفي بتقدمات من أفضل أجزاء الغنائم الحربية. والجزيرة تربتها خصبة؛ وبين ليبارا وصقليا تقع ثرميسّا التي يدعونها الآن هييرا هيفيستا[36]، والجزيرة كلّها حجرية لا يسكنها أحد، وهي مليئة بالنيران الجوفية؛ وعليها ثلاثة تيارات نارية تبدو كأنها ترتفع من ثلاث فوهات بركانية. ومن أكبر الفوهات تقذف النيران كتلاً متوهجة ملأت الشطر الأكبر من المضيق. وبناء على المشاهدات يفترضون أن اللهب هنا وفي إيتنا يزداد قوّة

بتأثير الرياح، وعندما تهدأ الرياح يختفي اللهب أيضاً. ولا يفتقر هذا إلى الأسس، لأنّ الرياح تنشأ عن أبخرة البحر، وإذ تهبّ فإن هذه تحفزها؛ ولذلك فإن من قُدّر له أن يشاهد مثل هذه الظاهرات لو مرّة واحدة، لن يستغرب أن النار أيضاً، تشتعل بتأثير مادّة أو ظاهرة شبيهة. وبحسب بوسيدونيوس أن إحدى الفوهات قد تهدّمت جزئياً، أمّا الفوهات الأخرى فلا تزال موجودة؛ ويصل امتداد الأطراف المستديرة لأكبر الفوهات 5 مراحل، إلا أنها تتضيق تدرجاً حتّى يصل قطرها 50 قدماً. ويبلغ ارتفاع هذه الفوهة من القمة حتّى مستوى سطح البحر مرحلة واحدة، وهكذا فإن الفوهة تظهر من البحر للعين المجرّدة إذا لم يكن الطقس عاصفاً بالرياح. وإذا كانت هذه المعلومات صحيحة بما يكفي، فربّما ينبغي عندئذٍ أن نصدّق الرواية الأسطورية عن إيمبيدوكلس[37].

ويواصل بوليبيوس قائلاً: عندما تهب الريح الجنوبية، يلف الجزيرة من جهاتها كلّها سديم ضبابي يجعل من المتعذّر تمييز حتّى صقليا من بعيد؛ وعندما تبدأ الريح الشمالية، يصعد من الفوهة المذكورة لهب، وتتزايد شدّة الدوي الآتي من هناك؛ ولكن عندما تهب الريح الغربية تحل حالة من الاعتدال. وعلى الرغم من أن الفوهتين الأخريين لهما شكل الفوهة الأولى عينه، إلاّ أن مقذوفاتهما أقلّ شدّة. وعلى هذا النحو فإننا نستطيع تبعاً لشدّة الدويّ والمكان الذي يبدأ منه الانفجار، [ويظهر] اللهب وسحابة الدخان، أن نتوقع اتجاه الريح في اليوم الثالث بعد هذا[38]. وعلى أي حال، بحسب بوليبيوس أن بعض سكّان الجزر الليبارية يقدرون الاتجاه الذي ستتخذه الريح من غير أن يخطئوا، ولكن بعد أن يحلّ أوان ملائم للإبحار. ولذلك يغدو واضحاً أن قول هوميروس الذي يعدّ القول الأكثر خيالية، لم يقله الرجل عبثاً؛ فالشّاعر يلمّح إلى حقيقة عندما يدعو إيولس «سيّد الرياح»[39]. وأنا كنت قد تحدّثت من قبل[40] بالتفصيل عن هذا. ونحن يمكننا أن ندعو اهتمام هوميروس بهذا الوصف الحي [....][41]. لأنهما ظاهران للعيان في مركّب [ملحمته] وفي الوصف الحيّ. وفي الأحوال كلّها فإن المتعة من هذا وذاك عينها. ولكن ينبغي عليّ أن أعود إلى الموضوع الذي حوّلت عنه.

11- لقد تحدّثت عن ليبارا وثرميسّا. أمّا سترونغيلا فإنها تدعى بهذا الاسم بسبب شكلها[42]. وهذه الجزيرة بدورها مليئة بالنيران الجوفية؛ والحقيقة أن شدّة لهبها أضعف، لكنّ سطوعه أقوى من سطوع الضوء. ويروى أن إيولس كان يقيم هنا. أمّا الجزيرة الرابعة فهي جزيرة ديديما، التي على النحو نفسه حملت اسمها تبعاً لشكلها[43]. ومن الجزر الأخرى، حملت اسمها تبعاً لعالم النبات فيها كلّ من أريكوسا[44]، وثينيكوسا[45]، وقد كرّست الجزيرتان مرعى للمواشي. والجزيرة السابعة، هي جزيرة إيفونيم[46] الواقعة أبعد من الأخريات في عرض البحر، وهي جزيرة

obeikandl.com

غير مسكونة. وقد دعيت إيفونيم باسمها هذا لأنها تقع على يمين المبحرين من ليبارا[47] إلى صقليا. ولم تكن نادرة رؤية اللهب المتراكض على سطح البحر حول الجزيرة، عندما كان يفتح مخرج ما من الجوف في عمق الأرض وتندفع النيران بقوة إلى السطح. ويروي بوسيدونيوس من ذاكرته، أنه في الصباح الباكر، في حوالي وقت الانقلاب الشمسي الصيفي، كان يمكن أن ترى كيف ارتفع البحر بين هييرا وإيفونيم إلى علوّ مخيف. وبقي على حاله تلك لبعض الوقت يقذف النار بشكل متواصل، ثمّ يعود إلى هدوئه المعتاد. ولما رأى الشجعان الذين أبحروا إلى الجزيرة سمكة ميتة جرفها التيار (بعضهم دحره القيظ والنتانة)، فرّوا هاربين. ومع ذلك فإن أحد القوارب دنا أكثر، ففقد عدداً من بحارته، وبالكاد نجح الآخرون في الوصول إلى ليبارا؛ وكان هؤلاء يفقدون وعيهم تارة كالمصروعين، ويستردونه تارة أخرى. وبعد أيام كثيرة كان يمكن أن ترى النفايات عائمة على سطح البحر، وفي أماكن كثيرة كان البحر ينفث لهباً، ودخاناً وسخاماً؛ ثمّ تصلبت النفايات بعد وقت وباتت تشبه حجراً طوله ميل. وقد أخبر تيتوس فلامينوس[48] سينات روما بهذا الحدث. فأرسل السينات سفارة لتقديم قرابين الاسترضاء لآلهة العالم السفلي وآلهة البحر في الجزيرة والجزر الليبارية. وبحسب كوروغراف أن المسافة من أريكودا إلى ثينيكودا 10 أميال، ومن هنا إلى ديديما 30 ميلاً، ومن هنا إلى ليبارا في الشمال 16 ميلاً، وأخيراً من هناك إلى صقليا 19 ميلاً، ولكنّ المسافة من سترونغيلا 16 ميلاً. وأمام باهين تقع ميليتا (ومنها يأتون بالكلاب الصغيرة التي تدعى ميليتية)، وغاود؛ ويقع هذان الموقعان على بعد 88 ميلاً من هذه الرأس. وتقع كوسورا أمام ليليبيه، وأمام أسبيدا، وهي مدينة قرطاجية (تدعى أيضاً كلوبيا) تقع بين هذين الموقعين على المسافة التي أشرنا إليها آنفاً[49]. وأمام صقليا وليبيا تقع أيضاً إيغيمور والجزر الصغيرة الأخرى. إن هذا هو وصفي لهذه الجزر.

الفصل الثالث

1- بعد أن وصفنا أقاليم إيطاليا القديمة[1] حتّى ميتابونتي، يجدر أن نتحدّث عن البلدان المجاورة لها. فمن البلدان المجاورة لها، يابيغيا التي يدعوعا الإغريق ميسابيا، ويقسمها السكّان المحلّيون إلى شطرين، فيدعون شطراً منها باسم بلاد السالينتينيين (عند رأس يابيغيا)، والثاني باسم بلاد الكالابريين. وإلى الشمال أعلى من الأخيرة يعيش البيفكيتيون والدافنيون، كما يدعونهم بالإغريقية؛ ويدعو السكّان المحلّيون البلاد الواقعة وراء المنطقة الكالابرية، أبوليا. كما يدعى بعضهم بيديكاليين، غالباً البيفكيتيون. وتمثل ميسابيا ما يشبه شبه الجزيرة، لأنها محاطة ببرزخ يمتدّ من

برينتيسي حتّى تارانت بطول 310 مراحل. ويشـكّل الخـطّ البحـري مـن هنـا وحـول رأس يابيغيـا مـا يقـارب 400 مرحلـة[2]. والمسـافة مـن هنـاك إلى ميتـابونتي حـوالي 220 مرحلـة، والطريق تمتدّ باتجاه مطلع الشمس. ومع أن خليج تارانـت كلّـه خـال بـأكثر أجزائـه مـن الموانئ، إلاّ أن ميناء كبيرة جدّاً وجميلة، تقع هنا على مقربة مباشرة من المدينة نفسها، ويصلها بهـا جسـر كـبير؛ ويبلـغ امتـداد محـيط هـذه المينـاء 100 مرحلـة. وعلـى الجانـب المجاور للقسم الأقصى مـن الخلـيج، تشـكّل الميـناء مـع البحـر الخـارجي برزخـاً، ولـذلك فإن المدينة تقع على شبه جزيرة، ومن السهل جرّ السفن من الجانبين، لأنّ البرزخ يقـع في مكـان منخفض. وليس القطاع الذي تقوم عليه المدينة منخفضاً، إلا أنه يرتفـع قلـيلاً عنـد الأكروبوليس. وامتداد محيط السور كبير، ولكنّ الشطر الأكبر من المدينـة (الشـطر الـذي عنـد البـرزخ) مهجـور الآن؛ بيـد أن الشـطر الواقـع عنـد مـدخل المينـاء، حيـث يقـوم الأكـروبـوليس، لا يـزال سـليماً ويشـكّل مـن حيـث أبعـاده، مدينـة كـبيرة. وفي المدينـة جمنازيوم فخم، وسوق ذو مساحة رحبة يقوم فيه تمثال برونـزي ضـخم للإلـه زيـوس، إنـه تمثالـه الأكـبر بعـد التمثـال الموجـود في رودوس. وبـين مسـاحة السـوق ومـدخل المينـاء يقـع أكروبوليس وفيه بقايا منشآت تقدمات بسيطة زينوه بهـا قـديماً. فقـد دمّـر القرطـاجيون الجـزء الأكـبر منهـا بعـد أن اسـتولوا علـى المدينـة، وحمـل الرومـان الجـزء الآخـر غنيمـة حربيـة عنـدما اقتحمـوا المدينـة وأخذوهـا[3]. ومـن الغنـائم الـتي حملـها الرومـان مـن تارانـت، تمثال برونزي مهول لهرقل صنعه ليسيبوس، ويقـوم التمثـال الآن فـوق الكـابيتول بعـد أن كـرّس لفابيوس مكسيموس الذي استولى على المدينة.

2- وفي حديثه عن تأسيس المدينـة، يقـول أنطـوخ، إنـه بعـد بـدء الحـرب الميسـينية أعلن اللاكيـديمونيون أولئك الذين تقاعسوا عن المشاركة فيها عبيداً ودعـوهم إيللـوت؛ وأطلقوا علـى كـلّ الأطفـال الـذين ولـدوا أثنـاء الحـرب تسـمية بـارثينيين، وحرمـوهم مـن حقـوق المواطنيـة. لكـنّ هـؤلاء الأخيريـن لم يطيقـوا هـذا، وبمـا أن أعـدادهم كانـت كبيرة، فقد دبروا مؤامرة ضدّ المواطنين الأحرار. ولما علم هؤلاء بـالمؤامرة، دسّـوا عـدداً مـن الأشـخاص اتخـذوا صـفة الصـداقة لكـي يكتشـفوا خطّـة المـؤامرة. وكـان بـين المتآمرين المدعو ثالانثوث، وقـد عـدّ هـذا قائـداً لهـم، لكنّـه لم يكـن راضـياً علـى وجـه العمـوم عـن الـذين اختيروا للمشـاركة في المجلس [مجلـس المتـآمرين]. لقـد تقـرر تنفيـذ الهجـوم علـى عيـد الهيـاكينثوس في معبـد أبوللـون الأميكلـي أثنـاء الاحتفـال بالألعـاب، عنـدما يرتـدي ثـالانثوث قبعـة جلديـة (كـان يمكـن تمييـز المـواطنين بشـعرهم الطويـل). ولكن عندما أفشى ثـالانثوث ومناصـروه سـرّاً خطّـة المتـآمرين، وعنـدما كانـت الألعـاب قد بدأت، خرج مناد ومنع ثالانثوث من ارتداء القبعة الجلدية. وهنا أدرك بعض المتـآمرين

أن مـؤامرتهم قـد اكتشـفت ففـروا هـاربين، أمّـا الآخـرون فقـد أخـذوا يتوسـلون العفـو والـرأفة. فـأمر المواطنـون بالحفـاظ علـى الهـدوء ووضعوهـم تحـت الحراسـة، أمّـا ثـالانثوث فقـد أرسلوه إلى معبد الإله[4] ليسأله تأسيس مستعمرة. فأجابه الإله:

منحتك ساتيريون وحقول تارانت الخصبة،

لكي، بعد أن تسكن هناك تغدو هولاً على اليابيغيين.

وهكـذا مضـى البارثينيون إلى هناك مع ثالانثوث فاستقبلهم البرابرة والكريتيـون الذي كانوا يملكون هذه المنطقة مـن قبـل. ويقـال، إن هـؤلاء كـانوا الكـريتيين الـذين أبحروا إلى صقليا مع مينوس، وبعد موته في منزل كوكال كاميكي تركوا صقليا. وفي طريق العودة[5]، حملتهم العاصفة بعيداً عن الطريق، مـع أن بعضـهم طـاف بـرّاً حـول البحر الأدرياتيكي ووصل إلى مقدونيا حيث دعوهم بـالبوتيين. ويقـال أيضـاً، إن الأقـوام كلّها حتّى دافنيـا كـانت تـدعى يابيغيـة تيمنـاً بيـابيغوس الـذي أنجبتـه لديـدالوس امـرأة كريتية وكان قائداً للكريتيين. أمّا تارانت فقد حملت اسم بطل ما.

3- ويـروي إيثـور عـن تأسـيس المدينـة القصـة الآتيـة: لقـد أعلـن اللاكيـديمونيون الحرب على الميسينيين لأنّ هؤلاء قتلوا ملكهم تيليكلوس عندما جاء إلى ميسينا لكـي يقـدّم قربانـاً. فأقسـم اللاكيـديمونيون بـألاّ يعـودوا إلى ديـارهم إلاّ بعـد أن يسـتولوا علـى ميسينا كلّها أو يهلكوا في سـاحات القتـال. وإذ أعـدوا حملـتهم ومضـوا تركـوا وراءهـم الفتيان وكبار السن لحماية المدينة. ولكـن فيما بعد، في العـام العاشـر للحـرب اجتمعـت النسوة اللاكيديمونيات وأرسـلن عـدداً منهن إلى الرجـال لينقلن لهـم سـخطهن مـن أنهـم يحاربون الميسينيين في ظروف غير متكافئة (لأن الميسينيين إذ يحاربون على أرضهم وفي ديارهم، يستطيعون أن ينجبوا أطفالاً، بينما هم الذين تركـوا زوجـاتهم أرامـل، يقيمـون في معسكرات على أرض معادية). ولـذلك فإنـه ثمّـة خطـر مـن أن تعـاني الـبلاد نقصـاً في الرجـال. عندئـذٍ، وبمـا يتوافـق والتـزامهم بالقسـم، قبـل اللاكيـديمونيون حجـج النسـوة وأرسلوا المقاتلين الأقوى والأكثـر فتـوّة (لأن هـؤلاء المقـاتلين الفتيـان لم يكونـوا ملـزمين بالقسـم، لأنهـم كـانوا عندئـذٍ لا يزالـون أطفـالاً صـغاراً عنـدما شـاركوا في الحملـة مـع رجال بلغوا طور الرجولة). ثمّ أمروا كلّ رجل أن يعاشر فتاة، عادّين أنه على هـذا النحـو سيكـون عنـدهم كـثير جـدّاً مـن الأطفـال. وبعـد أن تمّ تنفيـذ هـذا الأمـر، حمـل المواليـد الجـدد اسـم بـارثينيين. أمّـا فيمـا يخـصّ ميسـينا، فقـد تمّ الاسـتيلاء عليهـا بعـد حـرب استمرّت تسعة عشر عاماً، كما يقول تيرتيوس:

لقد تقاتلوا من أجلها عشرين عاماً إلاّ واحداً

بروح قوية كان الرماحون دائماً صامدين في القتال،

الآباء الظافرون لآبائنا.
فقط في العام العشرين أخلى حقوله الخصيبة،
وهرب العدوّ من قمم جبال إيثوما الشاهقة.

(مقاطع 3، 4، 5)

لقد قسم اللاكيديمونيون ميسينا فيما بينهم، لكنّهم بعد أن عادوا إلى ديارهم لم يمنحوا البارثينيين حقوق المواطنية عينها، لأنهم لم يولدوا من زواج شرعي. عندئذٍ اتحد البارثينيون مع الإيللوت وحاكوا مؤامرة ضدّ اللاكيديمونيين واتّفقوا على رفع القبعة اللاكيديمونية في ساحة السوق إشارة لبدء الهجوم. ومع أن بعض الإيللوت أفشوا خطط المتآمرين، إلاّ أن اللاكيديمونيين أدركوا أنه يصعب عليهم أن يردّوا بدورهم بهجوم، لأنّ الإيللوت كثيرو العدد، وموحدو الرأي، لأنّ بعضهم عدّ بعضاً إخوة. لذلك أمروا الذين كان ينبغي أن يرفعوا الإشارة، بمغادرة ساحة السوق. وحين رأى المتآمرون أن مؤامرتهم قد اكتشفت، امتنعوا عن الهجوم؛ ونجح اللاكيديمونيون بإقناعهم بوساطة آبائهم، أن يعتزلوا البلاد ويؤسّسوا مستعمرة، ولكن بشرط أنهم إذا شغلوا المكان الذي يرضيهم، يجب أن يبقوا فيه؛ وفي حال عادوا عليهم أن يتقاسموا فيما بينهم خمس ميسينا. وهكذا هاجروا، وإذ أدركوا الآخيين في حرب مع البرابرة، شاركوهم مخاطرها، ثمّ أسّسوا تارانت.

4- وفي زمن ما، عندما عاش التارانتيون في ظل إدارة ديمقراطية، امتلكوا قوّة جبّارة لأنهم كانوا يملكون الأسطول الأكبر في المنطقة، ويجندون قوات من المشاة قوامها 30.000 مقاتل، ومن الفرسان 3000 فارس، و1000 «من قادة» الفرسان. وقد صاروا إلى أنصار للفلسفة الفيثاغورسية، خاصة أرخيت الذي حكم تارانت زمناً طويلاً. ولكن فيما بعد، وبسبب ازدهار المدينة، بلغ البذخ فيها مستويات جعلت أيام الاحتفالات الشعبية العامّة أكثر من أيام [العمل] في العام. وبسبب ذلك ساءت إدارة المدينة. ومن البراهين التي تؤكّد على حماقة الإدارة عندهم، أنهم استخدموا الغرباء قادة لقواتهم المقاتلة. فدعوا الإسكندر المولوسي لقيادة حربهم ضدّ الميسابيين واللوكانيين، وكانوا قبل ذلك قد دعوا أرخميدس بن آجيسلايوس، وبعد ذلك كليونيم، وأجاثوكليس، وأخيراً دعوا بيروس، عندما دخلوا معه في تحالف ضدّ الرومان. ولكن حتّى الذين دعوهم، لم يخضعوا لهم كما يجب، بل كنّوا لهم الضغينة. وعلى أيّ حال، بسبب عدائهم للإسكندر، حاول هذا أن ينقل إلى فوريا، الاحتفال الإغريقي المشترك في هذا الشطر من العالم (الذي كان يقام عادة في هيراقليا في منطقة تارانت)، وأمر بتحصين مكان على نهر أكالاندر، حيث كان يجب أن تلتئم الاجتماعات. وعلاوة على هذا،

يـروى أن البليـة الـتي حلّـت بالإسـكندر كانـت بسـبب جحـودهم. وبعـد ذلـك، في زمـن الحرب مع هنبيعل، فقدوا حريتهم، مـع أنهـم اسـتقبلوا بعـد ذلـك مسـتعمرة رومانيـة وهـم الآن في سلام ووئام أفضل مما كـان مـن قبـل. وقـد حـاربوا الميسـابيين بسـبب هيراقليـا، وتحالفوا في حربهم هذه مع الملوك الدافنيين والبيفكيتيين.

5- والشطر التالي من بلاد اليابيغيين، هو على الضدّ مما هو منتظر، بـديع. ومـع أن سطح الأرض يبـدو كـأنـه مليء بالحجـارة، ولكـن إذا مـا حرثـت فإنهـا تكشـف عـن طبقة سميكة من التربة الخصبة (على الـرغم مـن النقص في الرطوبـة)، صـالحة للرعـي والغابـات. وفي زمـن مـا كانـت الكثافـة السـكّانية في هـذه المنطقـة كلّهـا عاليـاً جـدّاً، وكـان فيها 13 مدينـة؛ أمّـا الآن فمـا عـدا تارانـت وبرينتيسـي، جعلـت الحـروب مـن المـدن الأخرى مجرّد بلدات صغيرة. ويقال إن سالينتينا مستعمرة للكريتيين. فهنـاك يقـوم معبـد لأثينا كـان في يوم ما معبداً غنياً، كما توجد أيضـاً صخـرة تحمـل اسـم رأس يابيغيـا، - إنها عبارة عن جرف كبير يمتدّ في عمق البحر نحو المطلع الشتوي[6] للشـمس، مـع أنـه يتّجه بعض الشيء نحو لاكينوس التي ترتفع قبالته من جهة الغرب وتلتقي معه عنـد آخـر مـدخل خليج تارانـت. والجبـال الكيرافنيـة أيضـاً، تلتقـي معـه عنـد آخـر مـدخل الخلـيج الإيوني. ويشكّل المعبر منه إلى الجبال الكيرافنية وإلى لاكينوس، حـوالي 700 مرحلـة. وتشـكّل الطريـق البحريـة مـن تارانـت إلى برينتيسـي وأولاً إلى بلـدة باريـدا 600 مرحلـة. ويـدعو معاصـرونا باريـدا باسـم فيريت؛ وتقـع هـذه الأخيرة في أطـراف منطقـة سـالينتينا، والوصـول إلى هنـاك مـن تارانـت بـراً أكثـر يسـراً مـن الطريـق البحريـة. ومـن هنـاك إلى ليفكـي 80 مرحلـة؛ وليفكـي هـذه مدينـة صغيرة فيهـا ينبـوع مـاء نـتن رائحتـه كريهـة. وتـروي الأسـطورة، أن هرقـل طـرد العمالقـة الـذين أسـرهم في فليغـرا الكامبانيـة، وقـد دعـوا هـؤلاء بـالليفتيرنيين. فهـرب العمالقـة إلى هنـا، فـأخفتهم الأرض، ومـن إيخـور[7] أجسادهم تنبع مياهه هذا الينبوع. ولهذا يدعى هذا الساحل ليفيترينيا. ومن ليفكـي إلى بلدة هيـدرونت 150 مرحلـة، ومـن هنـا إلى برينتيسـي 400 مرحلـة. ومثـل هـذه المسـافة إلى جزيـرة ساسـون الـتي تقـع تقريبـاً في منتصـف الطريـق البحريـة مـن إيبير إلى برينتيسـي. ولذلك يرسو البحارة الذين يعجزون عن مواصلة إبحارهم مباشرة في هيدرونت عـن يسـار ساسـون؛ وبانتظـار ريـح مواتيـة يتّجـه هـؤلاء إلى مـوانئ البرينتيسـيين؛ وإذ يرسـون هنـا يواصـلون رحلتهم بـراً عـبر طريـق أقصـر تمـرّ عـبر مدينـة رودي الإغريقيـة مسـقط رأس الشّاعر إينّوس. وعلى هذا النحـو فـإن المنطقـة الـتي يجوبونهـا في أثنـاء الرحلـة مـن تارانـت إلى برينتيسي لها شـكل شـبه جزيـرة. وتشـكّل الطريـق البريـة مـن برينتيسـي إلى تارانـت الـتي لا يسـتغرق اجتيازهـا سـوى يـوم واحـد لراجـل لا يحمـل معـه شـيئاً، بـرزخ الجزيـرة

المـذكـورة[8]؛ ويـدعوها أكثـرهم باسـم واحـد، ميسـابيا أو يابيغيـا، وكالابريـا أو سالينتينا، مع أن بعضهم يقسمها ويدعوها بأسماء أجزائها، كما ذكرت سابقاً[9]. لقد كان هذا هو وصفي لمدن هذا الساحل وبلداته.

6- تقـع لـوبي ورودي في داخـل الـبلاد، وإلى الأعلـى قلـيلاً تقـع أليتيـا؛ وفي وسـط البرزخ تقع أوريا، حيث لا يزال قصر أحد حكّامها قائماً حتّـى اليوم. ولأن هـيرودوت[10] يقـول، إن هيريـا تقـع في يابيغيـا وأن الـكـريتيين هـم الـذين أسّسـوها (مـن عـداد الـذين انفصلـوا عـن أسـطول مينـوس وهـو في طريقـه إلى صقليا)، لـذلك يجـب أن نـرى أن هـذه المدينـة، هـي مدينـة أوريـا أو فيريـت. ويقـال، إن برينتيسـي مسـتعمرة للـكـريتيين الـذين جاؤوا إلى هنا مـن كنوسـوس مـع ثيسـيوس، أو توجهـوا مـن صـقليا مـع يـابيغوس (يـروون الروايتين)، ومع أنه يروى أنهم لم يستقروا هنـاك، بـل ابتعـدوا إلى بوتييـا[1]. وفيمـا بعـد، حينمـا كانـت المدينـة تحـت حكـم الملـوك، فقـدت الشـطر الأكـبر مـن أراضـيها الـتي استولى عليها اللاكيديمونيون بقيادة ثالانثوث. ومع ذلـك، بعـد أن طـرد هـذا الأخير مـن تارانت، استقبله البرينتيسيون، وحينما توفّي أقاموا لـه مأتمـاً لائقـاً. وبلادهـم أفضـل مـن بلاد التارانتيين، لأنه على الرغم من أن التربة هنا عجفاء، إلاّ أنها مـع ذلـك تعطـي غـلالاً جيّـدة؛ فالعسـل والصـوف الـذي ينـتج هنـا يصنّف بـين أفضـل الأنـواع. زد إلى هـذا أن في برينتيسي مرافئ أفضل من تلك التي في تارانت. فهنـاك كـثير مـن المراسـي المحميـة مـن أمواج البحر، والمغلقة بثغر واحد، لأنّ الخلجان محصورة في داخل الثغر. وهـذا مـا يعطـي الميناء شكل قرني الإيل، ومن هنـا جـاءت تسـميته. وهـذا المكـان مـع المدينـة يشـبه فعـلاً رأس الإيل، ورأس الإيل يدعى باللغة الميسابية «برينتيسيوم». أمّا ميناء تارانت، فإنها على الضدّ من هذا غير محمية بالكامل من أمواج البحر، لأنها مفتوحة؛ عدّاك عـن هـذا أنـه ثمّة في عمقها بعض الأماكن الضحلة.

7- عند الانطـلاق مـن اليونـان أو مـن آسـيا، فـإن الطريـق الأكـثر اسـتقامة، هـي الطريق المتجهة إلى برينتيسي؛ وإلى هنا يأتي فعلاً كلّ من تتّجه طريقـه إلى رومـا. ويتّجـه إلى هنـاك طريقـان: واحـدة للبغـال فقـط، تمتـدّ عـبر أرض البيفكيتـيين (ويـدعونهم بيـديكليين)، والـدافنيين، والسـامنتيين إلى بينيفينـت؛ وتقـع علـى هـذه الطريـق مـدن إيغناتيـا، وكيليـا، ونيتيـوس، وكانوسـيوس، وهيردونيـا. ولكـنّ الطريـق عـبر تارانـت تسير يساراً بعض الشيء (مع أنها لدى الالتفاف لا تشكّل منعطفاً إلا لمسير يوم واحد)، وهي تدعى طريق أبيوس، وهذه الطريق ملائمة لنقل البضائع. وتقع عليها مـدينتا أوريـا، وفينوسـيا، وتقـع الأولى بـين تارانـت وبرينتيسـي، والثانيـة علـى حـدود السـامنيتيين

واللوكانيين. وتلتقي الطريقان المنطلقتان من برينتيسي، على مقربة من بينيفينيت وكامبانيا. ومن هنا إلى روما تدعى الطريق طريق أبيوس، وهي تمرّ عبر كافديوس، وكالاسيا، وكابويا، وكاسيلين، حتّى سينوسّا. ومن هناك يمضي جزء من الطريق التي وصفتها من قبل. إن الطول الكلي للطريق من روما إلى برينتيسي 360 ميلاً. وهناك طريق ثالثة أيضاً، تذهب من ريغوس عبر منطقة البريتيين، واللوكانيين، والسامنيتيين إلى كامبانيا، حيث تتّصل بطريق أبيوس. وتمرّ هذه الطريق عبر جبال الأبينين، وهي أطول بثلاثة أو أربعة أيام من الطريق التي تبدأ من برينتيسي.

8- والطريق البحرية من برينتيسي إلى الشاطئ المقابل تتّجه إلى الجبال الكيرافنية وساحل إيبير واليونان الذي يليها من جهة، وإلى إيبيدامنوس من جهة أخرى؛ وهذه الطريق أطول من الطريق الأولى لأنها تشكّل 1800 مرحلة[12]. ويستخدمون الطريق الأخيرة في غالب الأحيان، لأنّ موقع المدينة ملائم بالنسبة للأقوام الإيلليرية والمقدونية. وإذا ما أبحرنا من برينتيسي على طول ساحل الأدرياتيكي، فإننا نصل مدينة إيغناتيا، وهي المحطة المشتركة للمسافرين بحراً أو برّاً إلى باريوس. ويجري الإبحار مع الريح الجنوبية. وحتّى يومنا هذا[13] تمتدّ منطقة البيفكيتيين مع البحر، أمّا في داخل البلاد فهي تمتدّ حتّى سيلفيوس. وهذه المنطقة كلّها منطقة صخرية تغطيها الجبال، لأنها تشغل جزءاً مهماً من جبال الأبينين. ويبدو أنها استقبلت مستعمرين من أركاديا. ومن برينتيسي حتّى باريوس 700 مرحلة، أمّا تارانت فإنها تقع على مسافة واحدة تقريباً من المدينتين. ويقطن الدافنيون المنطقة المجاورة، ثمّ يأتي الأبوليون حتّى الفرينتانيين. وبما أن السكّان المحلّيين لا يستخدمون تسمية بيفكيتيين ودافنيين (إلاّ في الزمن القديم فقط)، وهذه المنطقة تدعى الآن كلّها أبوليا، لذلك ينبغي علينا أن نمتنع عن تحديد حدود هذه الأقوام بدقّة. ولذلك يجب عليّ أيضاً ألاّ أدلي برأي محدّد عن هذا.

9- ومن باريوس إلى نهر أوفيدس الذي تقع عليه ميناء الكانوسيتيين التجارية، 400 مرحلة، أمّا الرحلة عبر النهر إلى الأعلى حتّى الميناء، فهي تشكّل 90 مرحلة. وعلى مقربة تقع سالابيا أيضاً، وهي المرسى الشراعي للأرغيريبيين. وغير بعيد فوق البحر (على أي حال في السهل) تقع مدينتان: كانوسيوس وأرغيريبا، اللتان كانتا الأكبر بين المدن- المستعمرات الإيطالية، كما تبيّن بقايا محيطي سوريهما. لكنّ أرغيريبا الآن أصغر؛ وكانت هذه المدينة قد دعيت في الأول آرغوس هيبيون، ثمّ أرغيريبا، وتدعى الآن آربي. ويروى أن ديوميدس هو من أسّس المدينتين. ويرونك في هذه الأماكن بقايا ممتلكات ديوميدس- سهل ديوميدس وأملاك كثيرة أخرى: تقدمات قديمة في معبد

أثينـا في لـوكرا (لأن هـذه الأخـيرة أيضـاً كانـت في الـزمن القـديم مدينـة للـدافنيين؛ وتحوّلت الآن إلى مدينة خاوية)؛ وفي البحر على مقربة جزيرتان تحمـلان اسـم ديوميـدس؛ إحـداهما مسـكونة، ويقـال إن الأخـرى خاليـة. وحسـب بعـض روايـات الأسـطورة، أن ديوميدس اختفى من غير أثر على هذه الجزيرة الأخيرة، ومسخ مرافقوه طيوراً؛ وفعلاً إن الطيور على هذه الجزيرة لا تزال حتّى يومنا هذا طيـوراً أليفـة وتعيش نوعـاً مـا مـن أنـواع العـيش البشـري، لا بمعنـى نظـام عـيش الإنسـان فقـط، بـل إنهـا تبـدي وداعـة تجـاه الأشخاص المحترمين وامتعاضاً من المجرمين والفاسـدين. وأنـا كنـت قـد ذكـرت سـابقاً الروايـات الأسـطورية الـتي يرويهـا الجينيتيـون عـن هـذا البطـل والطقـوس الـتي تقـام علـى شرفه[14]. وعلى الأغلب أن ديوميدس هو من أسّس أيضاً سيبونت الواقعة على مـا يقـارب 140 مرحلة عن سالابيا. وعلى أيّ حـال فـإن المدينـة تـدعى بالإغريقيـة سـيبيونت، وجـاءت هـذه التسـمية مـن الحبـارى [Sepia] الـتي تقـذف الأمـواج بهـا إلى الشـاطئ. وبـين سـالابيا وسيبونت يجري نهر صالح للملاحة، وتقع بحيرة كبيرة لها مخرج إلى البحـر. وعبر هـذا النهر ينقلون البضائع من سـيبونت إلى البحـر، خاصـة الأقمـاح وسـواها مـن الحبـوب. وفي دافنيـا يقـوم فـوق تـل يحمـل اسـم دريـوس، معبـدان مكرّسـان لـبطلين: أحـدهما، كالخانـت، يقـوم فـوق القمـة نفسـها؛ وهنـاك يقـدّم سـائلو المتنبّـئ في الحلـم أضـحيتهم للبطل، وهي كبش أسود، ثمّ ينـامون علـى جلـده[15]. والمعبـد الآخـر، بوداليريـا، يقـع في الأسفل عند سفح التلّ على بعد ما يقارب 100 مرحلـة عـن البحـر. وينبـع مـن التـل جـدول صغير يشفي المواشي من أمراضها كلّها. وتقـع أمـام هـذا الخلـيج رأس غارغـان البحريـة التي تمتـدّ في عـرض البحـر مسـافة 300 مرحلـة شـرقاً؛ ومـا إن نتجـاوز الـرأس حتّـى نجـد بلدة أوريـوس وأمـام الـرأس تقـع جـزر ديوميـدس. إن هـذه المنطقـة كلّهـا تنـتج شـتّى أنـواع الغـلال وبكميـات كـبيرة، لكنّهـا أكثـر ملاءمـة لتربيـة الجيـاد والأغنـام. فأصـواف الأغنام هنا أكثر نعومة من أصواف أغنام تارانت، لكنّها أقلّ لمعاناً. والـبلاد هنـا محميـة مـن الريـاح لأنّ السـهول تقـع في المنخفضـات. ويـروي بعضـهم أن ديوميـدس حـاول أن يشـقّ قناة تصل إلى البحر، لكنّه استدعي إلى دياره وأنهى ما تبقى له من العمر هناك تاركـاً هذا المشروع ومشاريع أخرى غير مكتملة. لكن هذه الروايـة، هـي واحـدة مـن الروايـات التي رويت عنه. وتقول رواية أخرى، إن البطل بقي هنا حتّى آخر أيام عمره. وحسب روايـة أسطورية ثالثة، كنت قد ذكرتها، أنه اختفى علـى الجزيـرة مـن غـير أثـر. ويمكننـا أن نعـدَّ الروايـة الرابعـة روايـة الجينيتـيين، فهـؤلاء بـدورهم يـروون أسـطورة تتحـدّث عـن أن البطل قضى حياته كلّها في بلادهم، بل ويدعون موته تأليهاً.

10- وعلـى هـذا النحـو تكـون المسـافات الـتي سـجلتها مسـتندة إلى معطيـات أرتيمــيدور. ولكــنّ كــوروغراف يحــدّد المســافات مــن برينتيســي إلى غارغــان بــ 165 مرحلة، بينما يزيد أرتيميدور من هذا الرقم. ومن هنا إلى أنكونا، بحسب كوروغراف 254 ميلاً؛ وعلى الضدّ من هذا يرى أرتيميدور أن المسافة حتّى نهر إيسيس الذي يقع على مقربة من أنكونا، هي 1250 مرحلة، أي أقلّ بكثير من ذاك. ويؤكّد بوليبيوس أن المسافة من يابيغيا تقاس بالأميال، أي تحديداً: حتّى مدينة سينا 562 ميلاً، ومن هناك إلى أكويليا 178 ميلاً. فهما لا يوافقان على الطول المعتمد عادة للساحل الإيلليري من الجبال الكيرافنية حتّى منخفض البحر الأدرياتيكي، لأنهما يعطيان رقماً لهذا الامتداد يفوق 6000 مرحلة، جاعلين هذه المسافة على هذا النحو أطول، مع أنها أقصر بكثير. وعلى وجه العموم لا يتّفق الكتّاب كلّهم بعضهم مع بعض، خاصة فيما يتعلّق بالمسافات، كما قلت مراراً [16]. وفيما يخصّني أنا، فإني أدلي بدلوي حيث يكون الحلّ ممكناً، أمّا في حال العكس فأرى أنه من الضروري نقل آراء الآخرين. أمّا إذا لم أجد شيئاً عن الكتّاب الآخرين، فليس غريباً أن يتأتّى لي أيضاً أن أصمت حيال بعض الأشياء، خاصة حينما يكون لموضوعي مثل هذا الطابع. وفي الأحوال كلّها، فأنا لا أتوسل أي شيء مهم؛ أمّا فيما يتعلّق بما له قليل من الأهمية، فإنه لا يقدّم إلا قليلاً من الفائدة حتّى لو عرفته؛ ولذلك فإن إسقاطه لن يكون ملحوظاً ولا يمثل أيّ نقص في كمال بحثي.

11- ويلي غارغان مباشرة فضاء يشغله خليج عميق. ويدعى سكّان الضواحي باسم خاص: الأبوليين، مع أنهم يتحدّثون مع الدافنيين والبيفكيتيين لغة واحدة، ولا يختلفون عنهم في الأشياء الأخرى بشيء، في أقلّ تقدير الآن، لكنّهم ربّما كانوا يتميّزون عنهم في الأزمنة القديمة، ومن هنا ظهر اختلاف أسماء هذه الأقوام الغالب الآن. لقد كانت هذه المنطقة كلّها مزدهرة من قبل، لكنّ هنيبعل والحروب التي تلت دمّرتها وأفقرتها. فهنا وقعت معركة كانّوس [17] التي خسر فيها الرومان وحلفاؤهم خسائر بشرية كبيرة. وثمّة في الخليج بحيرة، وفوق هذه البحيرة، في عمق البلاد تقع تيانوم أبولوم سميّة تيانوم الصقلية. ويهيأ لي أن عرض إيطاليا في هذه النقطة يتقلّص باتجاه منطقة ديكيارخيا، لأنه يبقي من البحر إلى البحر برزخاً طوله أقل 1000 مرحلة. وتمتدّ وراء البحيرة طريق بحرية على طول الساحل إلى منطقة الفرينتانيين وبوكا. والمسافة من البحيرة بالاتجاهين - حتّى بوكا وغارغان 200 مرحلة. أمّا المناطق الواقعة وراء بوكا، فقد وصفتها من قبل [18].

الفصل الرابع

1- لقد كانت تلك هي على وجه التقريب أبعاد إيطاليا وسماتها المميّزة. وبعد أن قلت الكثير عن هذا، فإني سأشير الآن إلى أهم الشروط التي دفعت بالرومان إلى الشأو الذي بلغوه الآن. ويكمن أحد هذه الشروط في أن إيطاليا محمية بالبحار من جهاتها كلّها (كالجزيرة)، ما خلا بعض مناطقها، بل حتّى هذه الأخيرة تحميها جبال وعرة المسالك. ويتمثل الشرط الثاني في أن أكثر السواحل الإيطالية خالية من الموانئ، وتلك الموجودة منها فسيحة ورائعة. والظرف الأول ملائم لحماية البلاد من الهجمات الخارجية، ويمكّن الثاني الإيطاليين أنفسهم من مهاجمة الآخرين وإطلاق تقدّم تجارة واسعة. ويكمن الظرف الثالث في تنوّع مناخ إيطاليا ودرجة حرارة الجو فيها تنوّعاً كبيراً، الأمر الذي يستدعي تغيّرات كبيرة- جيّدة وسيّئة- في عالمي الحيوان والنبات، وعلى وجه العموم في كلّ ما يفيد استمرار الحياة. وتمتدّ إيطاليا طولاً من الشمال إلى الجنوب. وتضاف صقليا إلى امتدادها، وهذه شاسعة وطويلة بحيث تبدو كأنها جزء منها. وتتحدّد درجة حرارة الجوّ الملائمة وغير الملائمة بشدّة البرد وشدّة الحرّ، والحالات المتوسّطة بينهما[1]. وتبعاً لهذا يجب بالضرورة أن نقرّ بأن إيطاليا المعاصرة تقع بين نقيضين[2] وتمتدّ بعيداً بالطول، وينتمي أكثرها إلى المنطقة المعتدلة، إذ تتوفّر على أكثر شروط هذه المنطقة. وعلاوة على ذلك كانت من حظ إيطاليا ميزة أخرى: بما أن جبال الأبينين تمتدّ على طولها كلّه، وتشكّل على جانبيها سهولاً وهضاباً خصبة، لذلك ليس ثمّة جزء واحد من البلاد لم يفد من خيرات البلدان الجبلية والسهول. ويجب أن نضيف إلى هذا كثرة من الأنهار الكبيرة، والبحيرات، عدّاك عن كثير من الينابيع ذات المياه الحارّة والباردة التي خلقتها الطبيعة نفسها ملائمة للصحّة، ووفرة من مختلف المناجم. ومن غير الممكن إعطاء وصف واف لما تستحقّه موارد الغابات في إيطاليا، والقوت الذي توفّره للناس والحيوانات والنوعية العالية لغلالها كلّها. وأخيراً تقع هذه البلاد بين ظهراني أكثر الأقوام أهمية من جهة، وبين اليونان وأفضل أجزاء ليبيا من جهة أخرى؛ وهي ليست مؤهلة من الطبيعة نفسها لكي تسيطر وتسود لأنها متفوّقة على البلدان المحيطة بها بميزاتها وأبعاد حدودها وحسب، بل لأنّ قربها إليها يجعلها تحقّق سيادتها تلك بسهولة ويسر[3].

2- إذا كان من الضروري إضافة إلى وصف إيطاليا أن نقدّم أيضاً لمحة عامّة عن الرومان الذين بعد أن امتلكوا هذه البلاد جعلوا منها نقطة استناد للسيطرة على العالم كلّه، فإنه يمكننا أن نقول الآتي: بعد تأسيس روما وعلى امتداد أجيال كثيرة كان

يحكم الرومان ملوك حكماء. ثمّ بعد أن تبيّن أن آخرهم تركويني، كان ملكاً سيّئاً، طردوه وأنشؤوا نظام إدارة مؤلّف من خليط بين عناصر الملكية والأرستقراطية؛ وقد شارك في اتحاد دولتهم هذا، السابين واللاتين. ولكن بما أن هذه القبائل ومثلها الأقوام المجاورة لم تكن دائماً تحمل الودّ للرومان، فقد وجد هؤلاء أنفسهم مرغمين إلى حدّ ما على توسيع حدود بلادهم على حساب الأقاليم المجاورة، فأخضعوها. وعندما كان الرومان يتقدّمون على هذه الطريق رويداً رويداً، فقدوا على حين غرّة وعلى الضدّ مما كان منتظراً منهم، فقدوا مدينتهم، مع أنهم ووفق ما لم يكن متوقعاً أيضاً، استعادوها من جديد[4]. وبحسب بوليبيوس إن هذا الحدث وقع في العام التاسع عشر بعد المعركة البحرية التي وقعت عند إيجوسباتاما في زمن صلح أنتالكيدس. وبعد أن صدّ الرومان هؤلاء الأعداء، أخضعوا أوّل من أخضعوا اللاتين لسلطانهم، ثمّ وضعوا حدّاً لعربدة التيرينيين المنفلتة من عقالها، والسلت الذين كانوا يقطنون عند باد؛ ثمّ هزموا السامنتيين، وبعدهم التارانتيين، وبيروس، و[استولوا] أيضاً على الجزء المتبقي من إيطاليا، ما خلا منطقة تقع عند باد. وبينما كانت هذه المنطقة تقاوم الرومان بالسلاح، توجه هؤلاء إلى صقليا وانتزعوها من القرطاجيين، ثمّ التفتوا ثانية إلى الأقوام التي تقطن حوض باد. وبينما كانت هذه الحرب لا تزال دائرة، ظهر هنيبعل في إيطاليا، وبدأت الحرب الثانية مع القرطاجيين، وبعد بعض الوقت ستبدأ الثالثة التي أفضت إلى تدمير قرطاجة[5]. وعلى هذا النحو استولى الرومان على ليبيا وذلك الشطر من إيبيريا الذي انتزعوه من القرطاجيين. ومع القرطاجيين أشعل الإغريق انتفاضتهم، وكذلك المقدونيون، وشعوب آسيا التي تقطن هذا الجانب من هاليس وسلسلة جبال طوروس. وهكذا وجد الرومان أنفسهم مرغمين على أن يحاربوا في الوقت نفسه، الشعوب التي كان ملوكها أنطوخ، وفيليب، وبرسيوس. وبدأ الإيلليريون والتراقيون، جيران الإغريق، والمقدونيين الحرب ضدّ الرومان؛ ودارت رحى حرب ضروس تواصلت حتّى خضعت كلّ القبائل التي تقطن هذا الجانب من إيستر وهاليس. وعلى هذا النحو عينه كان مصير الإيبيريين، والسلتيين، والأقوام الأخرى كلّها التي تخضع الآن لسلطة الرومان. وفيما يتعلّق بإيبيريا فإن الرومان لم يتوقفوا عن محاربتها بقوة السلاح، حتّى أخضعوا البلاد كلّها، وفي غضون ذلك طردوا النومانسيين[6]، ثمّ فرياف، وسرتوريوس، وأخيراً الكانتابريين الذين أخضعهم أغسطس قيصر. كما أخضعوا سلتيا كلّها، سواء التي على هذا الجانب من الألب، أو تلك التي وراء الألب، ومعها إيلليريا، أخضعوها في الأول أجزاء وبالتدرّج، أمّا فيما بعد فإن قيصر الإلهي، وبعده أغسطس، أخضعاها مرّة وإلى

الأبد دفعة واحدة في حرب شاملة. ويقود الرومان الآن حرباً ضدّ الجرمان انطلاقاً من هذه المناطق [السلتية] بصفتها القواعد العملياتية الأكثر ملاءمة، وقد نجحوا في رفع شأن وطنهم حتّى الآن بعدد من الانتصارات التي حقّقوها على أعدائهم. وفيما يتعلّق بليبيا فإن شطرها الذي لم يكن خاضعاً لسلطة القرطاجيين؛ نصّب عليه الرومان ملوكاً تابعين لهم؛ وإذا ما سوّلت لأحدهم نفسه أن يستقلّ عنهم، فإنهم يعزلونه وينصبون صنيعة آخر. فتحت سلطة يوبا الآن ماوروسيا وأجزاء كثيرة مما تبقى من ليبيا [أعطيت إليه] مكافأة له «على إخلاصه وودّه»[7] للرومان. والمصير نفسه حلّ بآسيا أيضاً. ففي أوّل الأمر حكمها ملوك تابعون؛ ولكن فيما بعد، عندما اندثرت سلالاتهم (كما وقع للملوك الأثاليين، والسوريين، والبافلاغونيين والقبدوقيين، والمصريين)، أو أعلنوا العصيان ضدّ روما، فعزلتهم (كما حصل لميتريدات إيفباتور وكليوباترا المصرية)، انتقلت كلّ المناطق الواقعة على هذا الجانب من فاسيس والفرات، ما عدا بعض أجزاء شبه جزيرة العرب، لتصبح تحت سلطة الرومان والحكّام الذين يعيّنونهم. أمّا الأرمن والأقوام التي تقطن إلى الأعلى من كولهيدا (الألبان والإيبيريين)، فيكفي وجود الولاة الذين يعيّنون، لأنّ خضوع هؤلاء لسلطة روما راسخ لا يهتزّ. وعلى أيّ حال حينما ينشغل الرومان بأعمال أخرى، فإن هؤلاء يعلنون العصيان، كما فعلت القبائل التي تقطن وراء إيستر عند البونتس الإيفيكسيني، ما عدا سكّان البسبور والبدو الرحّل. فقبائل البسبور تخضع فعلاً للرومان، أمّا البدو الرحل فإنهم بسبب عدم توافقهم مع القبائل الأخرى، لا ينفعون لشيء ويطلبون الحماية فقط. ويعود ما تبقى من مناطق آسيا لسكّان الخيام والبدو الرحل الذين يقطنون بعيداً جدّاً. أمّا البارثيون، فعلى الرغم من أنهم يجاورون الرومان، ويمتلكون قوّة جبّارة، إلا أنهم مع ذلك انحنوا أمام تفوّق الرومان وحكّامهم المعاصرين، وأعادوا إلى روما الغنائم التي عرضوها في وقت ما كدليل على انتصارهم على الرومان، وليس هذا وحسب، بل أكثر من هذا، إذ أودع فرآت أولاده وأولاد أولاده رهينة لدى أغسطس قيصر ضمانة «لصداقته» معه[8]. وغالباً ما يأتي البارثيون اليوم إلى روما طلباً لملك عليهم، وهم على شبه استعداد للتنازل عن كامل جبروتهم للرومان. وفيما يخصّ إيطاليا نفسها (مع أن صراع الأحزاب كان يمزّقها في أحيان كثيرة، وفي أقلّ تقدير منذ أن خضعت لسلطة الرومان) وكذلك روما نفسها، فإن كمال بناء دولتها وشجاعة حكّامها وضعا حدّاً لسلوكهم طريق الضلال المهلكة. فمن الصعب إدارة هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف من غير أن تعهد بعنايتها لشخص واحد، أب لها. وفي الأحوال كلّها فإن الرومان وحلفاءهم لم ينعموا يوماً بمثل

هذا القدر من السلام ورغد العيش كما كان في عهد قيصر أغسطس منذ أن منح سلطة مطلقة. والآن أيضاً يمنحهم ابنه ووريثه طيباريوس [الخيرات نفسها]، لأنه يحاكي أغسطس بإرادته وتعليماته وإرشاداته؛ وهذا ما يفعله أيضاً ولداه، جرمانيكوس ودروز اللذان يعاونانه.

obeikandl.com